٦ – الرئيس السادات مع المشير أحمد إسماعيل بعد انتصار ١٩٧٣ .

٧ – الرئيس السادات يصافح الفريق حسن التهامى .

٨ – د. محمود فوزى يصافح الفريق محمد فوزى .

٩ - الرئيس السادات بالزى الرسمى فى أحد المساجد لأداء الصلاة .

١٠ - الفريق أول محمد أحمد صادق

١١ - الفريق سعد الشاذلى

١٢ - الفريق أحمد بدوى .

محطات مهمة في حياة السادات

- أحمد الله أن أحياني حتى أكتب هذه السطور.
- «أبو منقار» كان الاسم الحركي لجمال عبد الناصر.
- كيف اتهم أنور السادات بأنه عميل سوفيتي !!
- العبارة التي قالها المراغي وكانت سببا في خروجه من الأزهر.

عندما أعود إلى طفولتى أكتشف فيها الينابيع الحقيقية للاهتمام بالسياسة وبأن يكون لى دور فى إصلاحها أو تحريرها فإننى أتجه مباشرة إلى الريف إلى قريتى فما الذى أجده هناك؟ أجد الأراضى الخضراء الشاسعة.. أى الحياة المتجددة وأجد الانطلاق فلا شيء يوقف العين ولا شيء يعترض الخيال.. وكل أفكارنا ونحن صغار مثل طيور ينبت لها الريش.. فإذا طال الريش طارت فى كل اتجاه.

وربما كانت الأغانى الشعبية والمواويل هى هذه الأجنحة التى تحمل خيالنا وأحلامنا وتذهب بها بعيدا بعيدا وإن كانت كل هذه الطيور تحوم على شجرة واحدة هى مصر.

ونحن صغار كنا نسمع من أمهاتنا موال زهران ابن دنشواى ولم تكن دنشواى بعيدة عن قرية ميت أبو الكوم وكنت أسمع من أمى أيضا موال أدهم الشرقاوى وكان لهذه المواويل معنى واحد: أنها قصة جميلة حزينة ولكن فيها بطولة وفيها شجاعة فزهران وأدهم فلاحان قد اختارا عدوا واحدا هو الإنجليز الذين يجب أن يخرجوا من مصر وأن يرفعوا أيديهم عنها فهم غزاة وهم أجانب وفى هذا المجال وحده يجب أن يكون الإنسان بطلا..

وكان منتهى أملى- وأنا طفل- أن أكون زهران المنوفى أو أكون أدهم الشرقاوى.

ونحن أطفال تكون أحلامنا وأوهامنا أيضا مبعثرة هنا وهناك ولا يجمعها إلا شخص وإلا حدث أى أن يكون فى حياتنا بطل يعجبنا أو يقع حدث كبير نتجمع حوله ولم يكن موال زهران أو أدهم مجرد أغنية وإنما كان حادثا جليلا وملحمة بطل وكان فى نفس الوقت «دعوة مفتوحة» لكل الأطفال المحبين للبطولة أن يساهموا فى المعركة ضد قوات الاحتلال الذى طال ويئس الناس من زواله..

وعلى رغم نبرة الحزن فى المواويل المصرية فإن الفلاح المصرى فى طول التاريخ وعرضه لم يعرف اليأس عرف الصبر على مضض ولكنه أحنى رأسه كثيرا للعاصفة حتى تمر ثم رفع رأسه ليكون هو العاصفة التى تمر على جيش الغزاة الغاشمين.

وكان من آمالى أيضا أن أدخل الكلية الحربية فهذا هو المستقبل الوحيد المضمون فلم يكن لأى مصرى فلاح فقير مثلى أى مستقبل مضمون إنما المستقبل مضمون للناس الأكابر.. للطبقة القادرة أو الطبقة الحاكمة من الإقطاعيين والباشوات والأسرة المالكة وأتباعها وعملائها أما نحن فلا مستقبل لنا إلا إذا كانت هناك واسطة.

هل الذى اجتذبنى إلى العسكرية تلك البدلة الأنيقة؟ ذلك المظهر الجميل الذى إذا رآه الناس عرفوا أن صاحبه ضابط بينما لا يعرف الناس طبيعة عمل أو وزن أو قيمة أى إنسان آخر مهما كانت ملابسه ربما كان ذلك شيئا مغريا؟

هل لأن قوات الاحتلال البريطانية قوات عسكرية ولا يمكن أن يخرجها أو يواجهها أو يقاومها إلا عسكريون مثلهم.. أنا وغيرى من أبناء مصر؟

هل لأن كمال أتاتورك كان مثلى الأعلى؟ وقد رأيت صورته فى بيتنا فى مصر ولا بد أنها كانت فى بيوت أخرى كثيرة فقد كان زعيما إسلاميا عظيما كان فى عظمة جمال عبد الناصر بعد ذلك يوم أمم قناة السويس.. لقد قرأت قصة حياة كمال أتاتورك وأعجبتنى جدا وظللت مبهورا بها.. وقد ذكرت ذلك أكثر من مرة فقد قرأت الكتاب الذى ألفه أرمسترونج عن «الذئب الأغبر» أى كمال أتاتورك.. وأعجبنى جدا كتاب آخر قرأته لعباس العقاد وإن لم أكن من قرائه.. فأنا استريح إلى طه حسين والحكيم أكثر، هذا الكتاب عن حياة الشاعر الألمانى جيته وكان عنوانه «تذكار جيته».. والذى أعجبنى فى كتاب العقاد أنه راح يفرق بين صفات الأبطال فى التاريخ ويقارن بين «الرجل» العظيم وبين «الإنسان» العظيم أعجبتنى هذه التفرقة الدقيقة ووجدت فى كمال أتاتورك الكثير من الجوانب العظيمة التى استهوت طفلا وشابا ورجلا مثلى.. ولا أزال أتذكر وأنا طفل كيف إن هتلر عندما زحف من ميونخ على برلين هزنى هذا الزحف على العاصمة وتمنيت وقلت لزملائى الأطفال سوف أزحف على القاهرة وكنت فى تلك اللحظة أسبح فى ماء الترعة وأجفف ملابسى ولا بد أنهم ضحكوا لمثل هذه العبارة ولم أكن أضحك وإنما كنت أقولها جادا دون أن أعى معنى الذى أقول وكأن صوت القدر هو الذى يملأ جوانبى ويخرج مثل هذه العبارات الكبيرة من فمى!

• صحيح كان فى حياتنا قبل ذلك زعماء من مثل مصطفى كامل ولكن مصطفى كامل ظهر بعد الحرب العالمية الأولى واتخذ من مذبحة دنشواى نقطة الانطلاق ضد الإنجليز لقد فضحهم فى أوروبا وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام فى ذلك الوقت كانت متواضعة فإن مصطفى كامل استطاع وحده بالخطب التى ألقاها والرسائل التى بعث بها إلى الصحف الأوروبية أن يقلب

الدنيــا على الاحتلال البريطانى حتى ســحب البريطانيون رجلهم فــى القاهرة كرومر وكان طاغيــة جبارا وكان مصطفى كامل هــذا بطلا يملأ عقولنا وقلوبنا.. وكنــا نتغنى به فى موال زهران ابن دنشــواى..بل إن هذا الموال نفســه قد جعل لمصطفى كامــل نهاية حزينة.. جعله شهيدا فقد وضع له الانجليز السم ثم مات فى ريعان شبابه.. ولكن البطولة لم تمت وزهران لم يمت والموال نفسه لم يتلاش له صدى فى أذن أحد منا نحن أبناء الريف فى ميت أبو الكوم.

ولا بد أن نلقن الطلائع – أى الصغار حتى الثامنة عشرة – تاريخ مصر الحقيقى بل يجب أن ننبهــم مــن الداخل يجب أن نجعل أعماقهم غنية قوية لا تهزها الأحداث وإنما تواجهها لا يزعزعهــا الألم وإنما يصهرهــا ويطهرها وبذلك يصبحون صامديــن قادرين كما فعلت فى مواجهة الأهوال واجتيازها.

إن قريتنا لم يكن فيها أحد يقرأ ولخمســين عاما ســوى والدى وكانوا يطلقون علينا أولاد «الأفنــدى» أى محمد أفندى الســادات.. ولذلك فأنــا أرى تطوير القرية وتعليــم كل أبنائها ضرورة حيوية لأن هذا يخلق «جوا» صحيا لكى تزدهر المواهب وتنمو الملكات ويكون فى ريف مصر أبناء قادرون على تطويره وعلى إيقاظ مصر وتحريرها واستدراك ما فاتها فى أزماتها.. لا بد أن نقول لأبنائنا الشــبان: يجب ألا نخاف من المســتقبل يجــب أن نواجه كل الصعاب فالصعاب ضرورة لبناء الإنسان والإنسان القوى ضرورة لبناء الوطن والوطن القوى ضرورة لكى نلحق بركب الحضارة الإنسانية فى كل مكان.. فبناء الشخصية هدف هام.

وقد دفعنى أبى وشجعنى على القراءة وكنت أحبها فعلا ولم أرفع عينى عن الكتب وعندما كنت فى الســجن كنت لا أرفع عينى عن الكتب إلا لكى أتأمل نفســى وغيرى أو كنت أغمض عينى وأنظر فى داخلى وأعتقد أننى وجدت فى أعماقى كنزا هائلا ويســتطيع كل إنســان أن يجد ما وجدت لو أنه نظر فى أعماقه وقد قال لنا سبحانه وتعالى ذلك ودعانا إليه عندما قال: ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ صدق الله العظيم [سورة الذاريات – آية ٢١] .

وهذه الفترة التى أمضيتها فى السجن قد أضاءت لى الكثير فى نفسى وأضاءت لى الطريق إلى حياتى السياســية وفى هذا الضوء اهتديت إلى حقيقة هامة هى: إن الإنسان قيمة كبرى وأنه لا شىء فى هذه الدنيا يساوى كرامة الإنسان وإن الإنسان حيث يضع كرامته إن رفعها ارتفع وإن وضعها اتضع وإن الجوع مع الكرامة أشــرف من الهوان مع التخمة وكم شبعت كلاب فى بيوت الباشوات وكم جاعت ألوف فى الحقول من الآدميين!

وتعلمت أيضا أنه من الممكن أن يهون أمرى على الناس وهذا يعذبنى ولكن أقسى درجات العذاب أن يهون أمرى على نفسي.. وقد عرفت فيما بعد معنى الهوان أن يهون الإنسان على غيره وعلى نفسه بعد نكسة ١٩٦٧ فتلك محنة مصرية عربية إنسانية كبرى!

وتقدمت للكلية الحربية ودخلتها وتخرجت فيها وطردت من الجيش وعدت إليه ولكن سنوات خدمتى العسكرية لم تزد على خمس سنوات ونصف أما بقية عمرى فكانت فى الشارع السياسى.

ومنذ سن صغيرة وأنا ألاحظ أن شيئا فى داخلى ينمو لا أقوى على معرفته ولكنه كان يدفعنى إلى أن أشارك فى الأحداث وفى التآمر على الإنجليز وأعوانهم حتى الموت.. حتى أشارك فى الموت وحتى كدت أنا أن أموت.

مفارقات فى الحياة

يشاء القدر أن الذى أدخلنى الكلية الحربية واحد إنجليزى.. طبيب إنجليزى فأنا الذى تشبعت بكراهية الإنجليز وكنت أحلم بالزحف عليهم وطردهم وقد دخلت الكلية الحربية بتوصية من واحد منهم.. فكأنه هو الذى دفعنى خطوة إلى الأمام فى ذلك الطريق الطويل إلى طرد الإنجليز من مصر.. وطرد غيرهم من الأجانب الذين أرادوا سلب إرادة مصر والتسلط عليها.. فلكى يدخل الواحد منا نحن الفلاحين الفقراء أو المصريين من غير أبناء الباشوات الكلية الحربية لا بد أن تملأ استمارة هذا إجراء عادى.

وفى هذه الاستمارة يجب أن يقول كل واحد منا: من هو.. ومن هو أبوه وكم يملك من الأرض أو غيرها.. وأهم من ذلك كله من هو الشخص العظيم الذى يوصى بدخوله الكلية الحربية.. أى لا بد من «واسطة» أى من ضامن.. أما أنا فمعروف أنى فلاح من ميت أبو الكوم وأبى محمد أفندى السادات كان يعمل فى الجيش المصرى فى السودان ولا يملك إلا ثلاثة أفدنة ومرتبه من الحكومة.. أما «الواسطة» فهو الطبيب الضابط الإنجليزى «فتز جيرالد».. ويوم كشف الهيئة كان رئيس اللجنة فى ذلك الوقت إبراهيم باشا خيرى وكيل وزارة الحربية.. شخصية كبيرة ومتزوج من إحدى قريبات الأسرة المالكة شيء رهيب!

وأمام هذه الهيئة لا بد أن يقرأوا أسماء الطلبة المتقدمين وأن يعلنوا «الواسطة».. وأعلن قبولى طالبا فى الكلية الحربية وكان ذلك حدثا جليلا وكنت فى قمة السعادة.. ولكن بعد أن قبلونى فى أول دور فصلونى فى ثانى دور.. وهناك قصة: ففى صيف ١٩٣٦ بعد عقد المعاهدة سمحوا للنحاس باشا أن يتفاوض فى إلغاء الامتيازات الأجنبية.

وأكثر الشبان لا يعرفون ما معنى أن تكون لإنسان على إنسان آخر أية امتيازات.. أى كيف يكون الإنسان مصريا وفى بلده ومواطنا من الدرجة الثانية.

أما المواطن من الدرجة الأولى فهو أى إنسان يحمل جواز سفر أجنبيا ويسمونه حامل «رعوية» إنجليزية.. وقد يكون حامل الرعوية سائق سيارة أى أجنبى أو طاهيا أو خادما.. فإذا جاء حامل الرعوية هذا وقتل أى مواطن مصرى لأى سبب.. فليس يحق لأهل الفقيد المصرى أن يقاضوه قبل الرجوع إلى السفارة الأجنبية.. فالسفارة هى التى تقضى فى الأمر.. وأكثر الأحيان ترى إخراج القاتل من مصر.. وإذا تلطفت بالقتيل عرضت الأمر على المحاكم المختلطة التى كل قضاتها أجانب.. وقلة نادرة من المصريين الذين تعلموا فى الخارج!

وهذه كانت حال مصر قبل ثورة يوليو.. واليوم نسمع من يتغنى بمصر التى كانت قبل ثورة يوليو مصر الامتيازات الأجنبية التى لم يكن فيها للمواطن المصرى إلا الدرجة الثانية أو الثالثة فى بلاده.. إن هؤلاء يزيفون التاريخ ويريدون إعادة عقارب التاريخ إلى الوراء حيث كنا غرباء فى بلادنا!

وقد ذهب النحاس باشا ليتفاوض فى مدينة مونترو على بحيرة ليمان فى سويسرا وكان معه فى ذلك الوقت حمدى باشا سيف النصر وزير الحربية.

وفى ذلك العام قبلت الكلية الحربية ٥٢ ضابطا ومن الصدف الغريبة أن يكون رقمى ٥٢ وكان عدد المتقدمين ألفين من المصريين. وذهبت فى اليوم التالى أدفع المصاريف وكانت مفاجأة لقد أنقصوا عدد المقبولين إلى ٤٥ فقط. إذن لست واحدا من هؤلاء لماذا؟ لأن سيف النصر باشا أرسل من مونترو يقول لهم: احجزوا لى سبعة أماكن! وأخرجوا سبعة وكان ذلك من أتعس الساعات التى مرت بى فى حياتى!

وذهبت إلى كلية الآداب ودرست فيها بعض الوقت.. ثم اتجهت إلى كلية الحقوق بعض الوقت.. ودخلت كلية التجارة ودفعت المصروفات.. ويجىء وزير الحربية من سويسرا ويذهب إلى الدكتور فتزجيرالد ليقدم اثنين من محاسبيه وطلب د.فترزجيرالد إلى والدى مدير مكتبه فى ذلك الوقت: يا محمد أفندى املأ هاتين الاستمارتين.. وملأ والدى الاستمارتين ووقع عليهم د.فتزجيرالد دون الكشف على صاحب الاستمارتين وبعد أن شرب وزير الحربية فنجان القهوة خرج ليعود بعد ذلك باثنين آخرين.. ثم ثلاثة آخرين..

ولكــن لكــى أدخل كان لا بد أن يذهب للقاء إبراهيم باشــا خيرى ولكن كيف؟ إنه باشــا كبير وتذكر والدى أن «حاجب» خيرى باشا هذا كان زميلا له فى السودان فاتفق معه على أن يعرض الأمر على الباشا.

ووعــد الحاجــب بذلك ثم طلب إلى أبى أن نذهب معا إلى بيت الباشــا ونعرض عليه الأمر وأكد لنا أن الباشا رجل طيب.

وكانت هذه أول مرة أدخل فيها بيت أحد الباشوات وكان يسمى البيت «فيلا» وكانت هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة وأعرف أنها مبنى مختلف أشد الاختلاف عن الشقق والبيوت العادية.. ذهبنا إلى فيلا الباشــا.. صعدنا الســلم.. انفتح لنا الباب وقفنا وراءه بمسافة قصيرة ووجدت أمامى شــيئا غريبا وجدت المقاعد تبدأ من وراء الباب مباشرة ثم رأيت مقاعد أخرى بعد ذلك ثم مقاعد ثالثة فى جانب من المدخل.. وقال لنا «الحاجب» صاحب والدى وهو الذى يجلــس عادة إلى جوار الســائق إن المكان الذى نقف فيه اسمه الانتريه.. وكان شــيئا عجيبا جــدا أن تكون هناك مقاعد كثيرة هكذا فالــذى أعرفه أنا فى بيتنا غرفة واحدة اسمها «أوضة المســافرين» هذه الغرفة مخصصة لاســتقبال الزوار والأقارب الوافدين من الريف وهم ينامون فيها أيضا وهى عادة بها مقاعد من الخشب الاسطامبولى.. وأعجب من ذلك أننى وجدت سلما فى وسط الفيلا وهذا السلم من الخشب وهو يصعد إلى دور علوى.. شىء غريب!

وفجــأة قيل لنا إن الباشــا نازل وتقدمنا الحاجــب ببنطلونه الذى له شــريط أحمر على الجانبين ومد يده وأخذ الشــنطة من الباشــا.. وقال له: يا سعادة الباشا هذا هو محمد أفندى السادات الذى حدثت سعادتك عنه وهذا هو ابنه الذى يريد أن يدخل الكلية الحربية.

ووقف الباشا شىء رهيب ولم يتمكن أبى رحمه الله عنه أن ينطق بكلمة واحدة فقد ارتبك ولم يقدر إلا على كلمتين: سعادة الباشا.. سعادة الباشا.. ولكن الباشا نظر من فوق وقال: هو ده.. محمد أفندى.. وهو ده الولد بتاع الكلية الحربية.. آه.. ونزل من الســلم يســبقه الصول الذى حمل الشنطة وفتح له باب السيارة الكاديلاك كان وزراء زمان لهم حاجب ولهم سيارات كاديلاك وليسوا مثل وزراء هذه الأيام مساكين مرهقين.. وانتهت هذه المقابلة - إذا اعتبرتها مقابلة-بعد نصف دقيقة! ودخلت الكلية الحربية..

حــدث مرة أخرى أيام كنت رئيســا لمجلس الأمــة أن جاءنى إبراهيم باشــا خيرى فقد فرضت عليه الحراســة هو وأولاده وجاءنى الرجل وانتهز التاريخ أو القدر هذه الفرصة لكى

يعيد نفسه.. وقف الرجل أمامى مرتبكا تماما كما وقف أبى قبل ذلك ولم يفتح الله على الباشا بكلمة واحدة وأنقذته من هذه الورطة عندما طلبت إليه أن يتفضل بالجلوس ولم يكن يتوقع ذلك واستأذن فى كوب من الماء لكى يبلل ريقه لقد كان أبى أحسن حالا منه فلم يجف ريقه إنما كان يقول: يا سعادة الباشا.. يا سعادة الباشا.

وأجلست الرجل وطيبت خاطره ورفعت عنه الحرج والفزع وقلت له: أنت كنت صاحب فضل على الثورة فقد كنت رئيس الهيئة التى أدخلت كل أعضاء مجلس قيادة الثورة.. فأنا وزكريا محيى الدين وحسين الشافعى دفعة واحدة.. وجمال سالم وعبد اللطيف البغدادى دفعة واحدة.. ثم بعد ذلك جمال عبد الناصر.. وحللت مشكلة هذا الباشا ولم يصدق الرجل أن ألقاه بهذا الترحيب فلم يكن بينى وبينه شىء وإنما هو النظام والطبقات فى ذلك الوقت هو ابن طبقة وأنا ابن طبقة ولم يكن فى استطاعته أن يفعل غير الذى فعل لا هو ولا غيره وتغيرت الدنيا والتركيبة الاجتماعية بعد الثورة وكان التسامح من أهم معالمها أو من أهم عناصر تركيبى النفسى فلا غل ولا حقد ولا مرارة ولا تشفى وإنما حب وتسامح وعفو عند المقدرة.

إرهاصات الثورة!

دخلت إيطاليا الحرب العالمية الثانية إلى جانب ألمانيا وزحفت القوات الإيطالية حتى وصلت إلى سيدى برانى أى داخل الحدود المصرية بحوالى مائة كيلو متر وكان فى استطاعة القائد الإيطالى جراتسيانى فى ذلك الوقت أن يمضى حتى الإسكندرية .. إذا أراد فلم يكن لدى الإنجليز شىء. وإن كان تشرشل فى مذكراته قد اعترف بذلك وحاول أن يغالط.

وكذلك الكونت تشيانو فى مذكراته قد اعترف بأن جراتسيانى نفسه كان يرى فى الهجوم على مصر عملا شاقا وخصوصا أن خطوط الإمدادات طويلة وأن المواصلات صعبة وأنه لا يعرف بالضبط كم عدد القوات البريطانية. ولكن تشيانو فى مذكراته يقول: إن موسولينى تضايق من صراحة جراتسيانى. وقال: إنه لا يصلح لقيادة الحرب لأنه مشغول بأن يكون ماريشالا فقط. وإن الرجل الذى له هدف واحد تافه كهذا لا يحق له أن يكون قائدا فى حرب مظفرة كهذه وأمره موسولينى بأن يحارب وأن يتقدم فحارب وتقدم وراح موسولينى يرقص طربا لأنه صاحب الأمر وأن النصر كان حليفه فى النهاية.

ويقول الكونت تشيانو فى مذكراته: إن جراتسيانى حاول أن يطلب تأجيل الزحف المتوالى بضعة شهور ولكن موسولينى رفض.

وفى ١٣ سبتمبر زحف الجيش الإيطالى بست فرق مشاة وثمانى كتائب دبابات واكتسحت القوات الإيطالية كل ما اعترضها.. ولكن الإنجليز جمعوا قواتهم بعد ذلك ونظموها واكتسحوا الإيطاليين حتى راحوا يتساقطون أمامهم أسرى بعشرات الألوف ومعهم كل أسلحتهم.. وعندما وصل الإيطاليون إلى سيدى برانى كنت فى مرسى مطروح.. وكانت مرسى مطروح مقسمة إلى ثلاثة قطاعات.. كان الإنجليز يحتلون قطاعين وكان القطاع الثالث معنا.

وفى ذلك الوقت كان على ماهر رئيسا للوزارة.. وكان ينادى وأقره البرلمان «بتجنيب مصر ويلات الحرب».

وأعلن الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر عبارته المشهورة: إن هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل! وقد أدت هذه العبارة إلى إخراج الشيخ المراغى من الأزهر. وصدرت إلينا نحن الأوامر بالنزول. فطلب إلينا الإنجليز أن نترك أسلحتنا وهذا الطلب–من وجهة النظر العسكرية - شىء فظيع فالذى يترك سلاحه كالذى يفرط فى عرضه وكانت عندنا بطارية مدفعية هاوتزر ومدافع ماكينة وكانت معنا كل أجهزة الاتصالات السلكية واللاسلكية وكنت المسئول عنها.

وفوجئ الإنجليز بأننا رفضنا هذا الأمر. ولم يكن لدى الإنجليز أسلحة كالتى لدى الجيش الإيطالى فقد أنتجت لهم شركة فيات أسلحة حديثة. أصبحت هذه الأسلحة فى حوزة الإنجليز بعد ذلك عندما انتصروا على الإيطاليين وأسروهم. ولكن هذا الموقف أضاء شيئاً فى نفوسنا.. فالإنجليز ليس عندهم سلاح وفى استطاعة الإيطاليين - لو أرادوا - أن يستولوا على مصر ثم إن معنا سلاحاً وأمامنا القاهرة ويمكن الزحف عليها والاستيلاء على كل شىء. وهنا ولدت الإرهاصة الأولى لثورة يوليو. فقد اتفقنا أن نتجمع وراء فندق مينا هاوس وهناك بعد أن تجتمع صفوفنا نوزع واجباتنا. وفى طريقى إلى مصر تخلفت ليلة عند العجمى.. ولما وصلت إلى ميناهاوس حيث اتفقنا لم أجد أحدا.. وبعد ذلك ذهبت إلى سلاح الإشارة عند المعادى وقوبلت أسوأ مقابلة ووضعت تحت المحاكمة.. ولأول مرة فى حياتى بكيت فأنا لا أعرف الدموع وقد مرت بى أحداث كثيرة تقطع القلب وتزلزل العقل ولكن عينى لم تستجب للموقف فتنزل دمعة أو دمعتان.. إلا هذه المرة عندما وجدتنى عاجزا عن الدفاع عن نفسى.

صاحب قرار الثورة

يجب أن نعترف بأن جمال عبد الناصر هو مفجر ثورة يوليو وهو الذى اتخذ القرار بموعد قيامها وفق حسابات دقيقة راعى فيها كل الاعتبارات فقد كان جمال عبد الناصر

داهية سياسيا.. وكان من المفروض أن تقوم الثورة فى نوفمبر.. أى بعد أن يكون الملك والوزارة والأحزاب قد عادوا جميعا من الإسكندرية إلى القاهرة وبذلك نواجههم جميعا ونحتويهم مرة واحدة.. بدلا من أن نخوض معركتين واحد فى القاهرة والأخرى فى الإسكندرية.. وكنا قد اتفقنا على ذلك فى يناير ١٩٥٢ عندما التقينا فى بيت حسن إبراهيم بمصر الجديدة.

وفى يوم ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٢ *اتصل أحمد أبو الفتح بجمال عبد الناصر يقول له*: إن الملك كلف أحمد نجيب الهلالى بتشكيل الوزارة وسوف يكون مرتضى المراغى وزيرا للداخلية واللواء حسين سرى عامر وزيرا للحربية. وقد روى جمال عبد الناصر كيف إنه ذهب لقتل حسين سرى عامر وكان معه اثنان آخران هما حسن التهامى وكمال رفعت وتسلق حسن التهامى مواسير البيت ووصل إلى غرفة النوم وأطلق الرصاص ولكن لم يصب حسين سرى عامر.

وكان الحرص على التخلص من حسين عامر سببه أنه يعرف سبعة من أعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار وكان من بينهم جمال عبد الناصر وعبد الحكيم وأنا.

وحسين سرى عامر هذا هو رجل فاروق وهو الذى قال للملك: أعطنى فرصة وأنا ألبسهم الطرح! ولو كنت مكان جمال عبد الناصر: ما فعلت غير الذى فعله.

وكان موقف جمال عبد الناصر: أننا يجب أن ننتهى منه قبل أن يقضى علينا.. وقد أعجبتنى عبارة قالها جمال عبد الناصر فى ذلك: لقد اتفقنا على يوليو.. ونحن الآن فى يوليو وقد جاءنا واحد يعرفنا جيدا فإما أن نقضى عليه أو يقضى علينا فإذا قضى علينا فإن هذا سوف يؤخر الثورة خمسين عاما.. ولذلك فهو الذى اتخذ قرار الثورة.. وفى هذا الوقت أعلن عبد اللطيف البغدادى أنه لا شأن له بالثورة ولكن إذا قامت فسوف يشارك فيها وكذلك أعلن جمال سالم..

وفى هذا اليوم أرسل لى جمال عبد الناصر برقية فى رفح يقول فيها: يا أنور.. انزل العريش لأن هناك رسالة.. رسالة من «أبو منقار» وأبو منقار هذا هو جمال عبد الناصر.. وكنت أنا وعبد الحكيم قد أطلقنا عليه هذه التسمية لأننا لو نظرنا إلى أنف جمال عبد الناصر نجده كالمنقار ثم اتخذنا هذه الصفة اسما «شفريا» لجمال عبد الناصر.. وجاءت الرسالة مع حسن إبراهيم الذى جاء بطائرة كنا نطلق عليها «حمار البوسطجى» لأن مواعيدها منتظمة جدا وتجىء كل يوم.

وقال لى حسن إبراهيم: إن جمال عبد الناصر يريدك أن تنزل إلى القاهرة غدا يوم ٢٢ يوليو.. لأن الثورة قد تحدد موعد قيامها ما بين غد ٢٢ يوليو و٥ أغسطس..

ومال حسن إبراهيم على جمال سالم فى المطار وقال له شيئا لا أعرفه. وذهبت إلى قائد سلاح الإدارة وقلت له: إن والدتى تعبانة وإننى فى حاجة إلى إجازة لكى أطمئن عليها. وكنت قد استنفدت مدتى من الإجازة. فوافق الرجل، وكان إنسانا طيبا رحمه الله.

ووصلت إلى محطة القاهرة، وعلى غير العادة لم أجد جمال عبدالناصر فى انتظارى، فقلت لعل شيئا شغله، وأخذت تاكسى وذهبت إلى البيت..

وأسرتى معقدة من جمال عبدالناصر، لأننى عندما أجىء فى إجازة لمدة أسبوع فإننى أقضى مع جمال عبدالناصر خمسة أيام ومع أسرتى يومين، وأحاول أن أبرر ذلك عادة بأننا فى كلية أركان الحرب وأننا ندرس وأنه لا مجال لنترقى إذا لم نحصل على شهادة أركان الحرب. وكان ذلك عذرا مقبولا بعض الوقت. ولكن عندما عرفوا جمال عبدالناصر، وجدوه إنسانا طيبا هادئا، بل إن «حماى» عندما تحدث إلى جمال عبدالناصر فى إحدى المرات يقول له: إنه يبحث عن شقة، أخذه فى سيارته الصغيرة وراح يفتش معه عن شقة..

ومن المناسب أن أعود إلى أول يناير سنة ١٩٥٢ وكان ذلك فى بيت حسن إبراهيم بمصر الجديدة وقال لنا جمال عبدالناصر فى ذلك الوقت: ياجماعة إن تنظيمنا الآن يقوم بتدريب المقاومة.. وكان كمال رفعت الله يرحمه قبل انحرافه إلى الماركسية، من ألمع النجوم عندنا الذين تولوا تدريب المقاومة ضد الانجليز فى القناة.

قال عبد الناصر: ياجماعة إن الإخوان المسلمين قد طلبوا منى سلاحا وتدريبا.

وكان بالفعل يعطيهم السلاح ويمدهم بالتدريب.

وكنا، ونحن فى رفح، نسرق الأسلحة والذخائر من الجيش المصرى، ثم نشترى من الفلسطينيين المدافع الرشاشة لكى نعطيها للإخوان المسلمين وللعناصر التى تكافح الإنجليز فى القناة. ومن بين هذه العمليات التى قمنا بها عملية اسمها عملية «التيتل» - وهو اسم كودى - فقد أطلقنا هذا الاسم على لغم بحرى صنعه أحد الضباط الأحرار وهو صلاح هدايت، وكان الغرض من هذا اللغم أن نضرب به إحدى السفن فى القناة التى يدعى البريطانيون أنهم موجودون هناك للدفاع عنها وعن الملاحة الدولية بقواتهم التى تبلغ ٨٥ ألفا. ونحن نريد أن نثبت لهم عجزهم عن ذلك.

وكان المفروض أن يذهب التيتل إلى القنطرة شـرق، ولكن لم نسـتطع فجاءنا إلى رفح، ومن رفح إلى العريش، ثم إلى القنطرة شرق.

وفـى إحدى الليالى كنت فى السـينما أتفرج على فيلم أحببته كثـيرا اسمه «ليلة الحنة» بطولة أنور وجدى وشـادية، فوجئت بعبد الحكيم عامر يدخل السـينما وينادى ويقول لى: التيتل وصل!

وكان الهـدف مـن وراء هذا كله ما أعلنه جمال عبدالناصر مـن أن إلغاء المعاهدة قد خلق موقفا جديدا فلماذا لانخلص من الإنجليز مباشـرة، إن إلغاء المعاهدة قد أصبح مادة للمزايدة بـين الأحزاب.. وقال جمال عبدالناصر أيضا: ليس من الضرورى أن نقوم نحن بهذه الثورة، وإنما علينا أن نجهز لها، وإذا لم نستطع نحن، فإننا نكون قد خلقنا الجو المناسب والمقدمات الضرورية لجيل من بعدنا!

وفـى يوم ٢٥ يناير: عمليـة البوليس المصرى فى الإسماعيليـة، فقد هجم الإنجليز على البوليـس المصـرى وكان فؤاد سـراج الدين وزيـرا للداخلية، وكانت الأحزاب مسـتمرة فى المزايـدات، وطلبوا من البوليس أن يقاوم لآخر طلقة، وجاء الإنجليز مسـتخدمين مدافع ٢٥ رطلا وهى من أحسن المدافع فى العالم فى ذلك الوقت، وهدموا الإسماعيلية.

وفـى يـوم ٢٦ يناير: حريق القاهرة، أحس جمال عبد الناصر أن هذه هى الفرصة، ولكن سـاعات حظر التجول جعلـت من الصعب عليه الاتصال بالوحـدات. وهذا الحريق هو الذى كرره الشيوعيون بعد ذلك يومى ١٨ و١٩ يناير، ولكن لم يجدوا الفرصة المواتية لذلك. وانتـهز الملك هذه الفرصة وطرد الوفد من الحكم وأتى بوزارة على ماهر..

وكنت فى ذلك الوقت على صلة بالدكتور يوسـف رشـاد، وهو مـن أصدقاء الملك، وكنت أطلعه على منشـورات الضباط الأحرار، وقد أقنعناه، وقد جلسـت طويلا مع د. يوسف رشاد وعرفت منه الكثير عن الملك.

وفى مارس قلت لجمال عبدالناصر: يا جمال..

قال: نعم

قلت: لمعلوماتك.. إن الملك بعد حريق القاهرة عمل الآتى - وأنا قد أتيت لك بالأخبار من مصدرها الأصلى - لقد أخبرنى يوسف رشاد وهو الصديق الشخصى للملك أن الملك قد جمعهم وقال لهم: اسمعوا يا جماعة لم يعد لى عيش فى هذا البلد..!..

وكان الملك فاروق يعنى ما يقول..

ولذلك فقد استخدم طائرة خاصة يقودها طيار اسمه عاكف يبعث بها إلى سويسرا لينقل له سبائك الذهب. وأخبرنى د. يوسف رشاد أن الملك فاروق قد أعد قائمة بأسماء الذين سيخرجون معه من مصر، وكان اسم يوسف رشاد فى مقدمة القائمة.

ولم يضيِّع الملك الوقت، بل كان يلعب على عنصر الوقت ليتمكن من تهريب كل مايحتاج إليه.. ولم يكن أحد يعرف ذلك سواى أنا وجمال عبدالناصر.

سعادتى مطلقة

وأنا أحمد الله سبحانه وتعالى، أن جعلنى أعيش لأكتب هذه السطور.. فقد كنت أول من أذاع قيام الثورة فى مثل هذا اليوم منذ ٢٥عاما.. هذا البيان كتبه جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر.

وفى تلك الليلة التى لم ينم فيها أحد، وكان التعب أرهقنى تماما فأغفيت دقائق، وفى الساعة السادسة والنصف أيقظونى، فصحوت والبيان فى يدى اليسرى، وذهبت للإذاعة فى مبنى ماركونى، وصعدت السلم، وكنا قد استولينا عليها، وهناك واجهنى الرقيب أنور حبيب - وهو وكيل النيابة - الذى وقف معنا فى قضية أمين عثمان.

وسألونى فى الإذاعة إن كانوا يوقفون إذاعة القرآن الكريم لكى أذيع أنا البيان، فرفضت، وبعد أن انتهت تلاوة القرآن الكريم جاءنى أنور حبيب يريد أن يعرف، فرفضت، ثم أذعت البيان: أول صوت يسمعه الشعب المصرى والعربى يتكلم باسم الثورة.

ولما نزلت من الدور الثالث قابلنى صحفى مصرى يهودى، هذا الصحفى قابلته سنة ١٩٧٥ فى لندن وأنا فى طريقى إلى الولايات المتحدة، ولم أجد فى رأسه شعرة بيضاء.

سألنى: هل تذكرنى؟

قلت: أعرفك أنت أول صحفى أعطيته حديثا صحفيا صباح ٢٣ يوليو..

جر شكل مع الملك!

كان المطلوب أن نتحرش بالملك.. أن نستدرجه إلى موقف ولا أقول إلى معركة، فقد انتهت المعارك مع الملك، وكان الملك فى الاسكندرية ونحن فى القاهرة. وكل ما نريده هو أن نتحرش به. وثانيا.. نريد أن نكسب الوقت لكى نتمكن من إرسال قواتنا إلى الإسكندرية لنسيطر على

الموقف فى حالة ما إذا أراد الملك أن يفعل شيئا. واهتدينا إلى الحل يوم ٢٣ يوليو.. وذلك بأن نبدأ بالتحرش بالملك، بأن نعرض عليه رئيس وزراء لا يريده..

وكان رئيس الوزراء فى ذلك الوقت نجيب الهلالى، وقد استمرت وزارته من ٢٠ إلى ٢٣يوليو، وكان وزير الداخلية مرتضى المراغى وكان من الوزراء المرموقين، وقد اتصل بمحمد نجيب يسأل عن الذى جرى، فأنكر محمد نجيب صلته بما حدث وقال له: لا علم لى بشىء..! وفى فجر يوم ٢٣ يوليو أبلغت جميع القوات المسلحة: تمام..

فالضباط الأحرار يسيطرون على جميع القوات المسلحة شمالا إلى الإسكندرية وجنوبا إلى أسوان وغربا إلى حدود ليبيا وشرقا إلى حدودنا مع إسرائيل. واستدعينا محمد نجيب فى عربة مدرعة من بيته فى الزيتون إلى القيادة العامة فى كوبرى القبة. ولم نجد رئيسا للوزراء تنطبق عليه الشروط المطلوبة وهى أن الملك لا يريده ولايقبله. سوى على ماهر، وقد أفلح أحمد حسنين فى أن ينسف كل ما بين على ماهر وبين الملك، أما الأحزاب فقد دخلت فى تنازلات ومزايدات حتى الرجل العنيد مصطفى النحاس هو الآخر قد أنهى دوره تماما.. فقد كان عنيدا ضد الإنجليز، وكان عنيدا فى استسلامه للسراى.. عاند الإنجليز واستسلم فى عناد للملك.

حتى يوم ٤ فبراير.. كيف يقبل النحاس باشا مثل هذا الموقف.. كيف يقبل أى إنسان مصرى أن تفرضه قوة أجنبية على بلده..

وقد كان سر إعجابنا بالنحاس باشا هو عناده مع الإنجليز، وهو بذلك قد اكتسب شعبية أكثر من الملك.. هذا الرجل يقف ويقول: نحن نتجه إلى كابرى! نتجه إلى «قبلة» جزيرة كابرى حيث اللهو.. حيث فاروق المنحل! ولكنه العناد من النحاس باشا، وهو عنيد بتكوينه فى أى اتجاه يختاره.

انتهى مصطفى النحاس من حسابنا، والوفد انتهى أيضا.

وكلفونى يوم ٢٣ يوليو أن أذهب إلى على ماهر، وأطلب إليه تشكيل الوزارة، ونفرضه على الملك، ونأخذ معه مرحلة صراع إلى أن ننتهى منه، ثم تحدث مشكلة نستدرج إليها الملك حتى نتخلص منه فى النهاية هو أيضا. إذن كان لابد أن أذهب إلى على ماهر، وأنا لا أزال أذكر كيف ذهبت إلى فيلا إبراهيم باشا خيرى، ولكن لابد أن على ماهر باشا هذا يسكن فى بيت أضخم وأفخم.

اتصلت بصديقى إحسان عبد القدوس.

قلت: يا إحسان..

قال: نعم..

أنت تعرف بيت على ماهر باشا؟

قال: نعم..

وكان إحسان عبدالقدوس فى قمة السعادة، فهذه الثورة جاءت بعد معركة الأسلحة الفاسدة، والحملات ضد الملك فاروق.

واتجهنا إلى بيت على ماهر باشا فى شارع الجيزة، وهو البيت الذى تشغله الآن سفارة فيتنام، ودخلنا البيت وجلسنا فى البلكونة المطلة على شارع الجيزة، الجو حار.

جاء معى إحسان عبدالقدوس، ولكنى كنت المفوض من مجلس قيادة الثورة بأن أطلب إلى على ماهر أن يشكل الوزارة الجديدة وتعرض على الملك.

وقلت له: السلام عليكم.

- عليكم السلام.

- أنا أنور السادات جئت إليك من مجلس قيادة الثورة لأقول لك: إننا قررنا تعيينك رئيسا للوزراء.

ولكن على ماهر كان سياسيا، أخذ يفكر بسرعة فى هذه اللحظة كان يجلس بالقرب من إدجار جلاد صاحب جريدة الزمان وهو رجل الملك فاروق فى الصحافة

ولما دخلت لاحظ إحسان عبدالقدوس وكذلك لاحظت أيضا أن على ماهر أحس بحالة من الذهول، ولكنه كرجل سياسى قديم حاول أن يخفى مشاعره وأن يفكر بسرعة. وفى هذه اللحظة مر سرب طائرات أربع قاذفات من ذوات المحركات الأربعة وكانت منخفضة واتجهت إلى النيل.

وسألنى على ماهر: هذه الطائرات معكم..

قلت: نعم.

لقد أراد أن يطمئن.

وفى ذلك الوقت كان على ماهر يريد أن يقبل الوزارة وأن يرفضها، أن يقبلها لأنه مركون منذ إحدى عشرة سنة.

لقد أفلح أحمد حسـنين زوج الملكة نازلى أن يفسـد ما بينه وبين فاروق تماما، وكان على ماهـر شـديد الحقد على أحمد حسـنين.. وفى نفس الوقت يريد أن ينتقـم من الملك فاروق.. ولايريـد أن يقبـل الوزارة، لأنه ليس على يقين من قدرتنـا أو من نجاحنا.. وطلب أن أعفيه بعض الوقت لكى يفكر.. وقال: أعطونى فرصة لكى أتصل بمولانا جلالة الملك فاروق..

فقلت له: اسمع يا رفعة الباشا، لقد اخترناك رئيسا للوزراء..

وهنا أحسسـت بإحسان عبدالقدوس يضغط على رجلى تحت الترابيزة بما معناه: اسكت حتى لايسمعك إدجار جلاد.

فقلت لإحسان: ماذا جرى لك يا إحسان؟!

إنى أريد إدجار جلاد أن يسمع وأن يقول للملك.

وعدت لعلى ماهر أقول له:

إننى أبلغك بتكليف مجلس قيادة الثورة أن تكون رئيسا للوزراء.

ووقفت.. وكان على ماهر فى غاية السعادة..

فقد انتصر على غريمه أحمد حسـنين وعلى فاروق أيضـا، مع أن على ماهر هذا هو الذى جعـل فاروق ملكا قبـل الأوان لأن فاروق كان يجـب ألا يتولى العرش بالحسـاب الميلادى، فحسبها على ماهر بالسنة الهجرية!

ثم قال: لا أملك إلا أن أوافق!

وأذعنا النبأ.

واتصل على ماهر بالملك، وأعلن الملك: أنه لا مانع عنده.

واتصل بى على ماهر فى القيادة وقال لى فى التليفون: لقد اتصلت بجلالة الملك، وأعلن أنه لامانع عنده مطلقا، وهو يريدنى أن أقابله الليلة فى الإسـكندرية. لكى أتحدث معه وقبل أن أسافر إلى الملك أريد أن ألتقى بأحد منكم لأعرف ما الذى سوف أعمله.

ووضعت سماعة التليفون وقلت لأعضاء مجلس قيادة الثورة:

على ماهر اتصل بالملك، والملك قبل التحدى.

وكنا نظن أن الملك سيرفض، وأنه سيستعمل سلطته الدستورية فى أن يعين من يشاء.

وطلب منى جمال عبدالناصر أن أتصل بعلى ماهر وأن أخبره أننا معا سوف نلقاه قبل سفره إلى الإسـكندرية. وذهبنا إلى بيته فى الجيزة، وقبل أن نذهب إليه درسنا الموقف ووجدنا أن

الملك كان ذكيا. والمفروض أن القوى يريد أن يفرض رأيه وأسلوبه، وهذا ما أردناه ولكن الملك استسلم، إذن لابد أن نبحث عن شئ آخر لنستدرجه إليه لكى نقضى عليه تماما..

فقدمنا لعلى ماهر ستة مطالب؛ ومن ضمن هذه المطالب مسائل تتعلق بحياة الملك الخاصة جدا، وكان المطلوب أن يرفضها الملك وبذلك يجاهرنا بالتحدى. ثم وصل على ماهر إلى الإسكندرية. وفى المساء اتصل بنا وقال لنا: الملك وافق على جميع طلباتكم.

قلت لإخواننا: الملك وافق! فماذا نعمل؟!..

واقترح على ماهر بهذه المناسبة: أن يجيء واحد منكم يكتب اسمه فى دفتر التشريفات لشكر الملك على قبوله الطلبات فسيكون لها أثر عظيم عند جلالته.

وجاءنا محمد التابعى، الله يرحمه، فى القيادة؛ وقال: ياجماعة ماذا تعملون؟

قلت له: لا شيء سوى أننا نريد أن تجرى الأمور بصورة سليمة هادئة..

قال: إذا مضيتم بهذه الصورة فسوف يقضى عليكم الملك، إننى أحذركم.

وكان التابعى يظن أننا شبان سذج وأننا لا ندرى ما نعمل.

ولكنه كان شجاعا عندما قال: خلصوا عليه قبل أن يخلص عليكم.. لاتضيعوا الوقت!

ولم نشأ فى ذلك الوقت أن نطلع أحدا على خطتنا.

وكان ردنا على طلب على ماهر: إننا سوف نفكر فى أمر إرسال واحد منا لشكر مولانا على العطف السامى.

يوم ٢٥ يوليو بدأ على ماهر يتشكك فى الأمر، لأن أحدا لم يذهب ويوقع فى دفتر التشريفات شاكرا للملك تفضله الكريم علينا بالموافقة على مطالبنا.. واتصل بى على ماهر، واستعجلنى.

وقلت له: إنى سوف التقى به اليوم، وركبت الطائرة ومعى محمد نجيب.

وقبل السفر قال لى جمال عبدالناصر: اسمع يا أنور خلصنا من الملك.. لأننا نريد أن نتجه إلى شيء آخر فى هذا البلد.. كفى وجع دماغ.

قلت: طيب يا جمال.

وقبل السفر قلت: يا جماعة هل معقول أن أدخل على رئيس وزراء هكذا دون أن يكون فى يدى شيء.. ولو شنطة.. وأعطانى جمال عبد الناصر شنطته، ودخلت بها على على ماهر

وأمــام الصحفيين، ونشــرت الصحف أننى أحمل حقيبة مليئــة بالوثائق.. وللحقيقة لم يكن بهذه الحقيبة شىء.. لقد كانت مليئة بالورق الأبيض.. مجرد منظر!

وكان مقررا أن نرســل الإنذار إلى فاروق يوم ٢٥ يوليو وليس يوم ٢٦ يوليو لمغادرة البلاد والتنازل لابنه. وقبل الملك الإنذار الساعة الحادية عشرة مساء، واتصل بى على ماهر، بل إنه اتصل بى فى الســاعة السادســة مساء وقال لى: مبروك لقد قرأ الإنذار وسيغادر مصر وسيوقع التنازل لابنه.

وسألنا على ماهر: ماذا ستعمل؟

قال: سأرســل المستشــار القانونى ســليمان حافظ ليكتب التنازل ليوقع عليه الملك.. وإذا شئتم عرضت عليكم صيغة التنازل.

قلت: لامانع أن يتنازل لابنه ويرحل.

قال: ولكن الملك يطلب شيئا واحدا.

قلت: ماذا؟

قال: أن يخرج بالسفينة المحروسة إلى إيطاليا بشرط أن يقودها له اللواء بحرى علوبة.

وعلوبة هذا كان قائدا بحريا وصديقا للملك.

وهنا حزنت أشد الحزن، فأنا المفوض من مجلس قيادة الثورة بإخراج الملك، وقد أخبرونى أن المحروسة فى حاجة إلى ست ساعات لكى تكون موتوراتها جاهزة للإبحار.

فقلت لهم: لقد أعطيت الإنذار للمحروسة وسوف تكون جاهزة:

أرســلت للواء علوبة، وقلــت له: إن الملك طلبــك بالذات واختارك أنت شــخصيا لقيادة المحروسة فى رحلته هذه.

والذى ضايقنى.. أنه تردد.

ثم قال: والله أنا بلدى مصر، وأنا لا أعرف هل إذا خرجت أستطيع أن أعود بعد ذلك؟!

قلت له: يجب أن تعرف الآتى:

أولا: أن توصل الملك إلى الميناء الإيطالى الذى يريده.

ثانيا: أن تعود بالمحروسة لأنها ملك للدولة.

ثالثا: لا عليك ولا ضدك شىء، فلا خوف، أنت مواطن مصرى.

ولما استراح إلى ذلك قال: إذن أقود المحروسة وأعود بها..

وخرج الملك وكان قد أدرك، بل كان أسرع من كل الذين حوله، أن كل شىء قد انتهى.. وأنه لاحياة له فى مصر بعد ذلك، وكان أسرع وأبرع من كل الذين حوله فى الوصول إلى هذه النتيجة.

ولذلك لم يحتج منا إلى «جر شكل» معه.. فقد أسلم واستسلم وخرج لأنه لا أمل له إلا فى النجاة.. فمن يدرى ما الذى كان يحدث له لو قاوم وركب رأسه وركبنا نحن أيضا رءوسنا؟

باختصار: سنة بسنة!

سنة ١٩٥٢

فى ٢٧ يوليو: كان الاجتماع التاريخى الذى ناقشنا فيه شكل الحكم: دكتاتورية أم ديمقراطية؟..

وطلبنا إلى الأحزاب بعد ذلك أن تطهر نفسها لتتسلم مسئولية الحكم. ولكن الأحزاب لم تتلكأ فقط بل قامت بعملية تصفية لحسابات شخصية. والأهم من هذا كله والأخطر أنهم رفضوا جميعا الإصلاح الزراعى، فقد كان فى مصر ٩٠٪ من الشعب لايملكون إلا قراريط أو لايملكون مطلقا.. بينما بقية الأرض تملكها الأقلية.

كل الأحزاب رفضته.. ورفضه الذين يريدون إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء؛ وعلى رأس هذه الأحزاب حزب الوفد. ولذلك كان أمرا حتميا أن تتولى الثورة السلطة!

ولذلك شكلت وزارة محمد نجيب.

وبسرعة بدأت الأحزاب تتسلل إلى الجيش على أساس أنه ما دام بعض الضباط قد استطاعوا القيام بثورة فلماذا لا يحاولون أن يستميلوا ضباطا آخرين ليثوروا على الثورة؟!

وقبضنا على الضباط المتآمرين مع الأحزاب.

سنة ١٩٥٣

انتهينا إلى مهلة ثلاث السنوات كفترة انتقال من ١٦ يناير ٥٣ إلى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ يوم أن يصدر الدستور، وقد صدر دستور مؤقت.

وحدثت صراعات حزبية.. لأننا فى يناير ألغينا الأحزاب. وقد صدر أخيرا قانون بإلغاء الإلغاء سنة ١٩٧٧ للأسف. وبدأ صراع محمد نجيب مع مجلس قيادة الثورة. وبدأ الدخول

فى محادثات مع بريطانيا من أجل الجلاء عن مصر. والجلاء عن مصر يمثل حجر الزاوية فى الوطنية المصرية كلها.

وهناك فرق كبير بين الأحزاب القديمة وبين الثورة فى النظر إلى جلاء الإنجليز.

الأحـزاب أخذتها على أنها «قضية» ينشـغل بهـا رجال القانـون ويبحثون عن نصوص ودساتير.

ولكننـا أخذنـا الجلاء على أنـه معركة وليس للانجليـز الحق مطلقا فـى البقاء ولا فى الامتيـازات، وقـد حاول الإنجليز أن يتصلوا بنـا وأن يعرفوا قادة الثورة ثلاثة شـهور فلم يتمكنوا مع أن لهم فى مصر ٨٥ ألف جندى بكامل معداتهم.

فى نفس الوقت الذى كان فيه زعماء الأحزاب يركعون تحت أقدام الإنجليز..

وفى الإسـكندرية حاولت المخابرات الإسـرائيلية الإيقاع بيننا وبـين أمريكا، فى قضية «لافون» وزير الدفاع الإسرائيلى، ولما فشلت اضطر وزير أن يذيع تفاصيلها..

سنة ١٩٥٤

لم يعـرف الإنجليـز طبيعة هذه الثورة إلى أن قامت حركـة المقاومة إلى جانب المفاوضة، ونحن منذ سـنة ١٩٥٣ نتفاوض معهم، واسـتعنا بأمريكا فى ذلك وبسفيرهم كافرى بالذات. لنقول للأمريكان والإنجليز معا: إن لنا إرادة وصاحب الإرادة لن يسلم بها.

ووضـح للإنجليز أنهم فى حاجة إلى الدفاع عـن قاعدتهم فى القناة. وليس عن مصالحهم. وذلك بسـبب العمل الفدائى الكامل الذى قام به المصريون وبتوجيه من قيادة الثورة لأننا كنا حريصين على أن نؤكد لدى البريطانيين أنهم مهددون وأنهم أولى بالدفاع عن أنفسـهم، قبل أن يدعوا أنهم باقون للدفاع عن مصالح العالم كله.

عندمـا تأكد لديهم ذلك اضطروا إلى توقيع اتفاقية الجلاء الذى يتم فى يونيو ٥٦، أى بعد حوالى عشرين شهرا.

أذكـر أن جمال عبدالناصر جمعنا فى اسـتراحة الهرم التابعة لـوزارة التربية والتعليم وعرض علينا ما وصل إليه الإنجليز. بدأت المزايدات على جمال عبدالناصر.

قـال: أنا وصلت مـع الإنجليز إلى أنهم لابد أن يجلوا عن مصـر، ولكنهم يخافون من أن يقع عدوان روسـى على المنطقة.. وسألتهم ماذا تريدون؟ قالوا: نريد سبع سنوات بعد توقيع

الاتفاقيــة نجلو عن كل مكان فى القاهرة ونبقى فى القناة لمدة ســبع ســنوات ببعض الفنيين المدنيين، حتى إذا حدث عدوان شيوعى استطعنا الدفاع عنكم وعن العالم العربى.

وهنا سألنا جمال عبد الناصر: ما رأيكم؟

وأخذ كل واحد منا الكلمة..

جمال سالم زايد عليه..

وكان جمــال عبــد الناصر فى غاية الوعــى، فقد كان حريصا على تســجيل هذا الاجتماع ومعرفة كل الآراء وقد خشى من الانتقادات إذا هو وافق دون مناقشة منا جميعا..

وجاء دورى فقلت له:

أنا أوافق على سبع سنوات مع بقاء ١٢٠٠ خبير مدنى بريطانى.. بل إننى أوافق على عشر سنوات.. هذا لا يخيف مطلقا، لأن المشكلة عندى هى أن يجلوا.

وقلت له: على بركة الله.

ووقع الاتفاق على ســبع ســنوات مع بقاء ١٢٠٠ خبير مدنى فى قاعدة القناة بدلا من ٨٥ ألف جندى بطائراتهم ودباباتهم.

سنة ١٩٥٥

وقــع عدوان اليهود فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥ على غزة التى هى تحت الإدارة المصرية، ومات أكثر من أربعين نسمة، وخرج بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل وأعلن أمام العالم كله وأمام مجلــس الأمن أن هذا الأمر قد وافق عليه مجلس الوزراء الإســرائيلى، ويتخذ مجلس الأمن قرارا مائعا. ولكن تبقى الحقيقة الهامة وهى أن إسرائيل تعترف أنها ارتكبت هذه الجريمة دون أن تكترث بالعالم كله وبموافقة الغرب وأمريكا وبريطانيا.

هذه نقطة تحول هائلة..

ولقد عاش بن جوريون هذا إلى سنة ١٩٧٣ ليعرف أن كل ما غرسه فى الشعب الإسرائيلى من حدود آمنة وهم فى وهم.. ويوم تهاوت بالكامل كل أساطيره وأحلامه المجنونة عندما قتل حفيده فى حرب أكتوبر، وانكشــف بذلك الغطاء عن جميع تناقضات المجتمع الإســرائيلى، وازدادت إسرائيل تمزقا وتصدعا. ولاتزال تعانى حتى اليوم وغدا وبعد غد - وهذا ما يقولونه هم عن أنفسهم!.

وهى نقطة تحول هامة: لأن أمريكا وبريطانيا رفضتا أن تمدنا بالسلاح، وأعطتا إسرائيل كل ما تحتاج إليه لتقوم بدور الكرباج فى الشرق الأوسط.

وبعد ذلك بحثنا عن مصدر آخر للسلاح خارج الكتلة الغربية، وهذا ما عرف بكسر احتكار الغرب للسلاح، ولم يبق أمامنا إلا الإتحاد السوفيتى والفضل فى ذلك يرجع إلى شوان لاى على نحو ما ذكرت فى «الأوراق» قبل ذلك.

سنة ١٩٥٦

عندما عاد الإنجليز إلى العدوان على مصر لم يكن لهم فى القناة غير ١٢٠٠ خبير مدنى مجردين من السلاح والقاعدة خالية ولا خطر منها على أحد. وسحبت أمريكا معونة السد العالى وأصدر دالاس بيانا اتهم فيه مصر بالإفلاس وأن اقتصادها لايتحمل السد العالى، ومن المهم التخلص من النظام القائم فيها. رد جمال عبد الناصر على ذلك بتأميم قناة السويس، أكبر معقل احتكارى استعمارى فى العالم.

سنة ١٩٥٧

وفى يوم أول يناير أصدر جمال عبد الناصر، أى بعد جلاء بريطانيا وفرنسا عن القناة بسبعة أيام، قرارين هامين جدا:

القرار الأول: سقوط معاهدة التحالف بيننا وبين بريطانيا، وبذلك سقط الألف والمائتان من المدنيين الإنجليز أسرى عندنا.

القرار الثانى: تمصير جميع المصالح الأجنبية فى مصر، وكان هذا بداية «القطاع العام»..

ففى أول يناير أممت أو مصرت جميع المصالح الأجنبية وكان على رأسها شركة مصر الجديدة، هذه الشركة كان رأس مالها اثنين أو ثلاثة ملايين من الجنيهات وتملك مئات الملايين من الجنيهات من أرض مصر.

وتم تأميم جميع البنوك والبيوت الإنجليزية والفرنسية فى مصر.

وبدأ القطاع العام بما قيمته ألف مليون جنيه استرلينى وفى هذا العام ظهر الاتحاد السوفيتى كقوة مواجهة. وسافر الملك سعود إلى أمريكا، وعاد من رحلته مارا بالقاهرة، وقد أحضر معه دوسيها من ألان دالاس مدير المخابرات الأمريكية وهو أخو فوستر دالاس.

وفى هذا الدوسيه أن أنور السادات عميل سوفيتى!!

وسـبب ذلك أننى أثناء معركة القناة ١٩٥٦ كنت أهاجم فوسـتر دالاس يوميا فى جريدة «الجمهورية».

وعرفنا فيما بعد، وكما ادعى فوسـتر دالاس وزير خارجية أمريكا؛ أن الأمريكان اتفقوا مـع أحد الملوك العرب على ما يسـمى «بخطة الغزو من الداخـل» لمصر، وكانت هذه الخطة- وكتبـت عنها التايم والنيوزويـك - معناها أن بعض الأنظمة العربية تحاول إسـقاط النظام فى مصر! وكانت النتيجة المباشـرة الأولى: سقوط حكم النابلسى فى مارس ١٩٥٧ فى الأردن وكان حكم النابلسى يرحمه الله وطنيا.

وحدد دالاس منتصف سـنة ١٩٥٧ لسـقوط الحكم فى مصر، وبدلا من أن يسقط الحكم فى مصر كما أراد كان السقوط يهدد كلا من الملك سعود والملك حسين!

وفى سبتمبر كانت تركيا تحشد قواتها على حدود سوريا وهبت مصر تساعد سوريا، ويسـمع العالم كله فجأة أن قوات مصرية نزلت إلى الشـواطئ السـورية فى شرق البحر الأبيض بينما الأسـطول السـادس موجود بالقـرب من هذه المنطقة، ولم يدر الأسـطول السـادس ولا إسـرائيل ولا العالم كلـه إلا عندما أعلنت مصـر ذلك..وذهبت إلى سـوريا على رأس وفد برلمانى مصـرى إلى البرلمان السورى وكان رئيسه أكرم الحورانى، وتبادلنا الخطـب، واتفقنا على قيـام أول وحـدة عربية تحـدث فى التاريـخ الحديث وكان ذلك فى نوفمبر.

سنة ١٩٥٨

توالت الأحداث فى يناير وفبراير وبلغت منتهاها عندما قامت الوحدة فى ٢٢ فبراير على أروع صورة. وبدأت القوى الخارجية تتآمر على هذه الوحدة.

سنة ١٩٥٩

وسنة ١٩٥٩ تميزت بالمعركة التى بدأت بين جمال عبدالناصر وخروتشيف ذلك أن الوحدة أغضبت خروتشـيف، فهو ضد القومية العربية وضد القوميات.. والشيوعية تدعو إلى العالمية وإلغاء القوميات.. وهذه الوحدة قومية عربية، فهاجم خروتشيف جمال عبدالناصر وهاجمه عبدالناصر أيضا وبنفس العنف.

سنة ١٩٦٠

بدأت بوادر الفشل فى الوحدة المصرية السورية.

سنة ١٩٦١

فى ٢٣ يوليو صدرت القرارات الاشــتراكية، التــى أراد بها جمال عبد الناصر أن يضرب جميع الجبهات المعارضة للوحدة وأن يقضى على جميع عناصر التآمر والتخريب للوحدة بين مصر وسوريا. ولكن الذى حدث كان عكس ذلك: فقد أذكت هذه القوانين شرارة التآمر المكثف على الوحدة، ولذلك وفى ٢٨ سبتمبر، أى بعد ذلك بشهرين، وقع الانفصال.

وبدأ العالم العربى مرحلة معاناة. ومصر على الخصوص بدأت مرحلة تخبط.

سنة ١٩٦٢

هذه ســنة الميثاق الوطنى والمناقشــات فى مجلس الشــعب والتى أريد بها امتصاص سخط وغضب الشعب على أسلوب الحكم.

ولابد أن نقول: إن الشــعب يمكن أن يعيش جائعا فى حرية، ولكنه لايقبل أبدا أن يأكل وحريتــه ناقصة.. والخطر الحقيقى هو أن تتحقق التخمة مــع الكبت، التجربة تؤكد ذلك؛ والتاريخ أيضا.

ولذلك فإن الميثاق لم يكتب له أن ينفذ على الإطلاق؛ وإنما كان فقط نوعا من «ورق النشاف» ليمتص غضب الشعب الذى يريد حريته.

وفى ٢٦ سبتمبر قامت ثورة اليمن.

وفى هذه الســنة اضطر بعدها عبد الناصر أن يخضع لإرادة الشعب وأن يخرج على صبرى بعد ذلك فى ســنة ١٩٦٥، بعد أن كاد الشــعب ينفجر من الداخل ففى ١٥٠ مقالة كتبها على صبرى بجريدة الجمهورية أعلن أن كل مصر تحتاج إلى إعادة تكوين من أصغر إنسان إلى أكبر إنســان من القضــاة إلى الحرفيين المهنيين إلى العمال.. الكل فاســد ويجب إصلاح اعوجاج كل الناس، ولم يدرك أن هذا الذى يقوله هو قمة الاعوجاج والخلل، وأنه بذلك أشــعل الســخط والغضب العام فى مصر.

سنة ١٩٦٥

جاء زكريا محيى الدين رئيسا للوزراء وكان معه د. عبدالمنعم القيسونى وزيرا للاقتصاد، وأراد زكريا محيى الدين أن يقف وقفة من شأنها إعادة النظر فى أمور البلاد فلم يتمكن، وكان زكريا محيى الدين من المؤمنين بالنظام الغربى، وهذا يبين لنا لماذا استخلفه جمال عبدالناصر

فى خطاب التنازل سنة ١٩٦٧ ، لأن جمال عبد الناصر لم يستطع أن يغير لغته، ولذلك اختار زكريا محيى الدين.. وخرج زكريا محيى الدين لأنه لجأ إلى سياسة انكماشية فى الوقت الذى يحتاج فيه اقتصاد البلاد إلى أسلوب آخر. ثم مؤامرة الإخوان المسلمين.

سنة ١٩٦٦

جاء صدقى سليمان رئيسا للوزراء.

وهنا لابد أن أذكر أن مجىء صدقى سليمان كان نتيجة لصراع القوى الذى كان قائما منذ أوائل الستينات أو ما قبلها، أو على الأصح منذ معركة ٥٦ بين عبدالحكيم عامر وجمال عبدالناصر. جاء صدقى سليمان مؤيدا من عبدالحكيم عامر، بل إن الذى اتصل به لتشكيل الوزارة كان عبدالحكيم عامر. جاء صدقى سليمان وسار على نفس النهج الذى سار عليه زكريا محيى الدين. ثم لم يلبث أن جاءت النكسة ١٩٦٧.

وللتاريخ يجب أن أذكر أن جمال عبد الناصر عندما جمع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى من أجل إقفال المضايق سنة ١٩٦٦ فإن الوحيد الذى عارض فى ذلك هو صدقى سليمان رئيس الوزراء، على الرغم من أن عبد الحكيم عامر حينما سأله جمال عبدالناصر سؤالا مباشرا: هل أنت جاهز يا عبد الحكيم؟

رد عليه عبد الحكيم؛ قولا وإشارة: أنا جاهز برقبتى!

وبرغم ذلك ظل صدقى سليمان معارضا، ووافق أعضاء اللجنة الآخرون وأنا واحد منهم، فأنا مسئول أيضا عن هذا القرار وشريك فيه.

وأنا أعلم أن الكثيرين ينكرون أنهم وافقوا على قرار إقفال المضايق، ولكنى أعترف بأننى وافقت! وفى هذه السنة شكلت لجنة رهيبة اسمها لجنة تصفية الإقطاع!

سنة ١٩٦٧

النكسة...

سنة ١٩٦٩

حرب الاستنزاف؛ وكان الاتحاد السوفيتى غير راض عن هذه الحرب. ولذلك طلب السوفيت من جمال عبدالناصر وقف الحرب. وأكثر من ذلك وللتاريخ أقرر على مسئوليتى أمام الله والشعب أن الذخائر التى استنفدها جمال عبدالناصر فى حرب سنة ١٩٥٦ وكنا نتفوق

علـى اليهـود فى المدفعية إلى يومنا هذا، هذه الذخائر تعمد السـوفيت أن يعوضوه عنها بعد وقف إطلاق النار فى أغسطس سنة ١٩٧٠!

وكان ذلك نكاية فينا وإعلانا لنا: أننا يجب أن نعلم أننا لانستطيع أن نستمر فى حرب الاستنزاف أو أن نتخذ أى قرار دون أن نرجع إليهم، للأسف؛ وهذا ما جعلنى أثور عليهم حتى هذه اللحظة.

والذى لايعلمه الناس أن جمال عبد الناصر كان ثائرا عليهم أكثر منى ألوف المرات. ولكن لم تكـن لديه إمكانيات الحركة، لأنه قطع علاقاتـه بأمريكا، وقطع علاقاته بالغرب، وقطع علاقاته بالعالم العربى. فلم يكن أمامه من أمل إلا أن يعود السوفيت إلى رشدهم يوما ما.

وفى سبتمبر سـنة ١٩٦٩ أصيب جمال عبد الناصر بأزمة قلبية حادة، وعندما استدعيت الطبيب السوفيتى الذى يعالجه لأنه لم يرد أن يشمت فيه الغرب، لاحظت شيئا غريبا جدا، فقد بدأ الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى بقيادة على صبرى فى الترويج لعملية أن جمال عبد الناصر ليس ولى أمر هذا الشـعب، ولا مجلس الشعب، وإنما نحن أمناء الشعب أصحاب الكلمة. وعندما اهتزت الأوضاع فى البلاد نتيجة لذلك، فاضطررت أن أخطب من أسـوان إلى الاسكندرية. واكتشف جمال عبد الناصر ذلك أيضا من متابعة لقاءاته بأساتذة الجامعات.

سنة ١٩٧٠

يكاد جمال عبد الناصر أن يكون قد أعد نفسه للرحيل.. يسافر سرا إلى الاتحاد السوفيتى فى يونيو ويوليو ويقبل مبادرة روجرز أمام القادة السـوفيت. وفى أول مايو يوجه خطابا إلى نيكسـون رئيس الولايـات المتحدة لأول مرة، وذلك بعد أن يئس من القادة السـوفيت. وتقع مذبحة الفانتوم، وتصرخ إسرائيل وتوافق على مبادرة روجرز.

ويحضر جمال عبد الناصر ويقول تعليقا على ماحدث فى موسكو: إن الحالة ميئوس منها تمامـا، قالها باللغة الإنجليزية. ويموت جمال عبـد الناصر. وأتولى الحكم من بعده، وبعد شهرين أصدرت قرار تصفية الحراسات.

سنة ١٩٧١

تصفية مراكز القوى. وإقالة على صبرى.

والوقوف إلى جانب الرئيس جعفر نميرى وشجب الثورة الشيوعية.

سنة ١٩٧٢

قرار إخراج الخبراء السوفيت ١٥ ألف خبير سوفيتى فى أسبوع واحد.

سنة ١٩٧٣

مواجهة كل التيارات المضادة التى كان ولايزال يتزعمها من يلبسون قميص عبدالناصر..

قرار الحرب الذى كان يرفضه الاتحاد السوفيتى على قدم المساواة مع الولايات المتحدة.

تخلص العالم العربى من المزايدات والشعارات والتصنيفات، وظهر جليا فى معركة أكتوبر أن العالم العربى بملكياته وجمهورياته عالم واحد، ولا مجال للصراع تحت أسماء التقدمية والرجعية.

سنة ١٩٧٤

الانفتاح الاقتصادى.

سنة ١٩٧٥

فتح قناة السويس.

سنة ١٩٧٦

إنهاء المعاهدة السوفيتية والتسهيلات البحرية.

سنة ١٩٧٧

التجهيز للحل الشامل للقضية.

لقد كانت الخمسينات إنجازات

وكانت الستينات هزائم متوالية

والسبعينات بدأت القرارات الحاسمة والانتصارات الكاملة.

□□□

١ - علـى ماهـر رئيس وزراء مصـر بعـد الثـورة يظهر معه الرئيس الراحل محمـد نجيـب وحسـين الشافعي .

٢ - الـود قبـل انقطـاع الوصـل بين نجيـب وعبد الناصر .

٣ - اللواء محمد نجيب يناقش بيـان قيادة الجيش الجديدة مع البكباشى أنور السادات .

٤ – مجلس قيادة الثورة برئاسة اللواء محمد نجيب وإلى يمينه حسن إبراهيم وخالد محيى الدين وإلى يساره جمال عبد الناصر والبغدادى وحسين الشافعى .

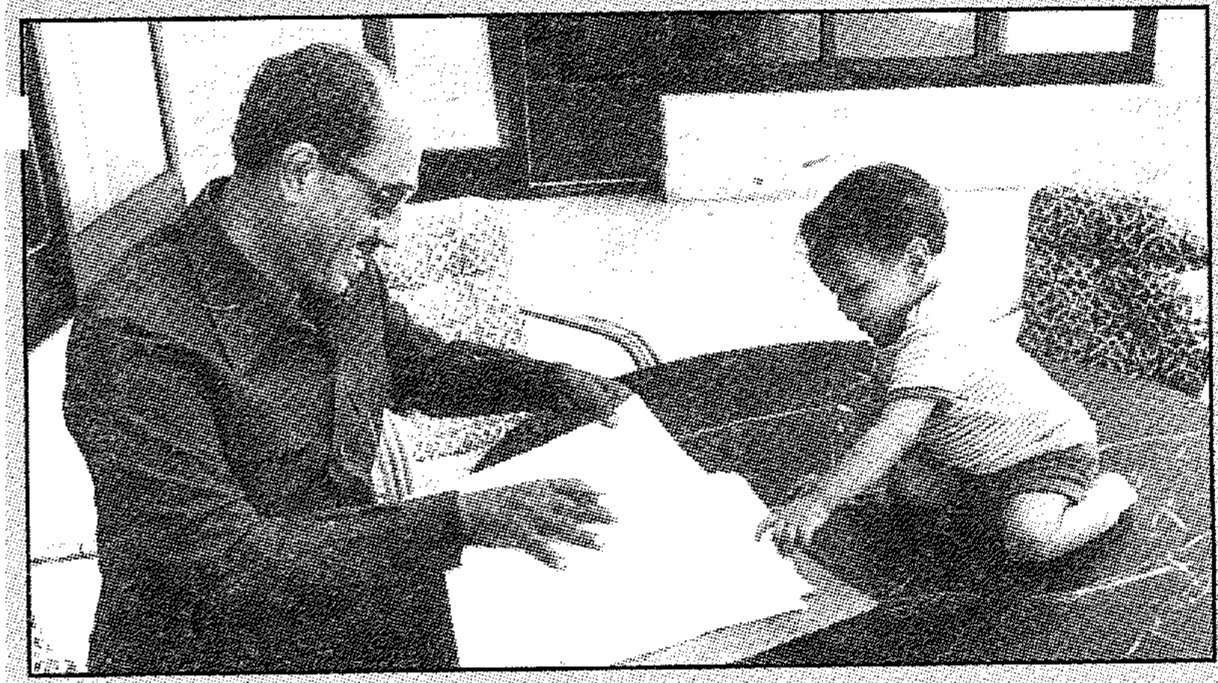

٥ – الرئيس السادات مع حفيده .

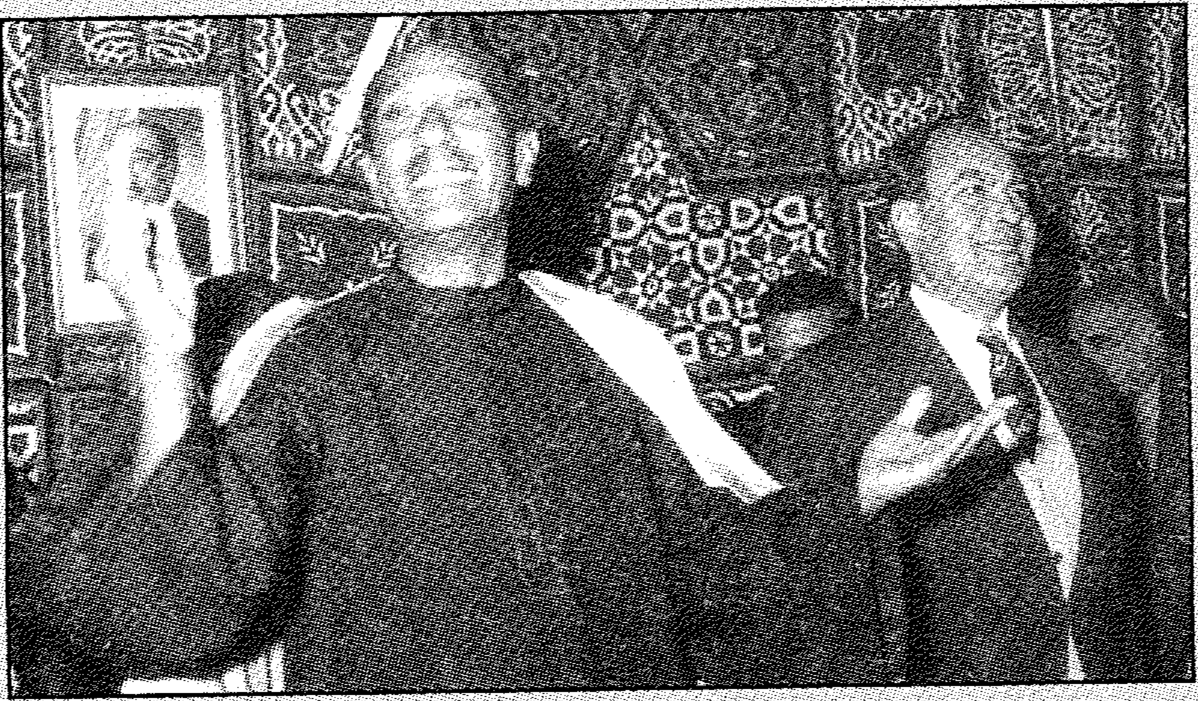

٦ – أثناء افتتاحه بعض المشاريع في ميت أبو الكوم .

٧ – الملك فاروق وبجواره مصطفى النحاس باشا .

٨ – الرئيس السادات وسط أهل قريته .

٩ -علي ماهر باشا .

١٠ - مصطفى النحاس باشا .

١١ - زكريا محيي الدين .

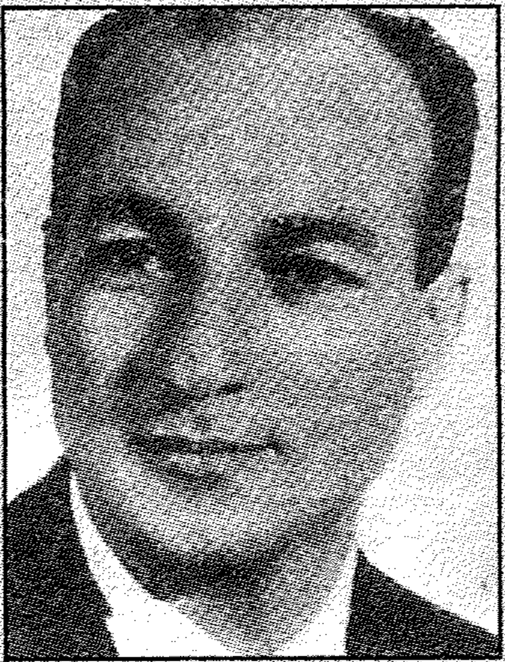

خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو

- اكتشاف محاولة لاغتيال السادات فى مديرية التحرير.
- الصدمة الأولى فى حياة السادات.
- كيف بدأت ثورة ١٥ مايو ؟
- السادات يعتزل الحياة السياسية.
- انتهاء أكذوبة الانهيار الدستورى.

هناك مثل يقول: إن الطريق الطويل يبدأ بخطوة قصيرة.

وهو مثل صحيح وينطبق هذا المثل على السلوك العام لأى شخص، وأى شعب.

وينطبق أكثر على الثورات .. التى هى خطة شاملة لتغيير عام فى الحياة والسلوك العام للشعوب.

فهل يمكن أن يقال إن ثورة مايو قد بدأت بسطر ونصف سطر نشر فى الصفحة الأولى من كل الصحف المصرية . وهذا السطر ونصف السطر هو: إقالة على صبرى من جميع مناصبه؟ وأنا أرى أن هذا تبسيط شديد وفى نفس الوقت أرى أنه لا يعطى لما حدث وزنه الحقيقى، بل يعطى لعلى صبرى وزنا أكبر وقيمة لا يستحقها وفى نفس الوقت يخصم من حساب الشعب المصرى الكثير من رصيده التاريخى العظيم..

ومن المؤكد أن ثورة يوليو ٥٢ هى الثورة الأم. وأنا شريك فى قيامها ومسئول مع جمال عبد الناصر عن كل ما فيها من حسنات وسيئات. وقد أعلنت هذا كثيرا. ولكن من العدل أن أذكره. إحقاقا للحق. وتأكيدا لهذا المعنى عند الأجيال الجديدة وعند الذين يهتمون بدارسة التاريخ.. وثورة يوليو هذه لها ثورة أم .. فإذا نحن استعرضنا ثورات القرن العشرين أى الخمسين عاما التى سبقت ثورتنا، فأننا نجد ثورتين: الثورة الشيوعية.. وثورة كمال أتاتورك..

وأعتقد أننا تأثرنا بثورة كمال أتاتورك. فهو زعيم تركى مسلم. وعلاقتنا بتركيا قديمة. ثم لأنه مسلم فقد استهوى العالم الإسلامى كله. الذى تطلع منذ وقت طويل لأن يرى زعيما إسلاميا يهز العالم الاسلامى ويوقظه من نومه الطويل ويدفعه من القرون الوسطى إلى العصور الحديثة. ومن الشرق القديم إلى الغرب الحديث..

وقد كان مصطفى كمال - الذى أطلق على نفسه لقب أتاتورك أى أبى الأتراك - بطلا عظيما ورأى فيه المسلمون ذلك الأمل المنشود. وإن لم يكن مصطفى كمال متمسكا بمبادئ الدين الإسلامى. ولكنه استطاع أن يطرد الغزاة. وأن يوحد شعبه الممزق وأن يكرهه على النهوض.

وأن يرغمه على التقدم وأن ينقله، وأحلام العالم العربى والإسلامى أيضا، إلى أوروبا الحديثة. وقد أحدث كمال أتاتورك تغييرات جذرية فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية. وكان الإعجاب به قد سبق وعينا السياسى.. فقد كبرت على الاستماع إلى بطولات مصطفى كمال.. فعندما جئنا إلى القاهرة وجدت صورة مصطفى كمال فى بيتنا.. فى مواجهة الذى يدخل البيت .. وكان يرتدى ملابسه العسكرية ويضع على رأسه ذلك الغطاء الذى يسمونه القلبك..

ومعنى هذه الصورة أن والدى معجب بهذا الرجل، ولا بد أن اختياره لأسمائنا أنا وأخوتى له علاقة بذلك فأسماؤنا: أنور وطلعت وعصمت.. وفى مصر وفى العالم العربى أسماء تركية كثيرة لهذه العلاقة التاريخية القديمة بالأتراك. وبسبب كمال أتاتورك. وهذه الثورة الكمالية هى الثورة الأم لنا. ما فى ذلك شك..

وأرى أيضا أنها الثورة الأم للفاشية الايطالية بزعامة موسولينى. وكان من المنطقى أن يتأثر موسولينى كرجل أوروبى بالثورة الشيوعية فى روسيا التى اعتمدت على فلسفة كارل ماركس الألمانى - أى الأوروبى ولكن ما كتبه موسولينى يؤكد أنه مختلف عن الثورة الشيوعية اختلافا جذريا. فهو يمجد الثورة القائمة على العقل، وليست القائمة على القول وهو يرى أن الثورة الشيوعية هى ثورة قائمة على «النظريات» تعيش بها وتنتشر بسببها، ثم تعتقل اتباعها فى قوالب نظرية.. فالنظرية أولا والإنسان ثانيا أو ثالثا.

وفى سنة ١٩٢٤ تقدم موسولينى هذا برسالة دكتوراه إلى جامعة بولونيا موضوعها (تعليق سنة ١٩٢٤ على كتاب الأمير لماكيافيللى).. وماكيافيللى هذا هو فيلسوف سياسى ايطالى .. أو هو أول سياسى له تفكير علمى فى التاريخ ومن الطبيعى أن يتحمس له موسولينى ولكن حماس موسولينى لمواطنه ماكيافيللى سببه أنه رجل على دراية عظيمة بطبائع البشر وليست عنده الشجاعة أن يصارح بذلك. لماذا .. لأن السياسى بطل جبان حتى تكون فى يديه القوة.. لأن الفكر السياسى بلا قوة يعتبر نوعا من الشعر، فإذا أصبحت للشاعر قوة أو للفيلسوف قوة فهو رجل السياسة.. وهو الزعيم.. ولذلك رأى موسولينى: أن الثورة عمل، وليست قولا.. وأن الثورة التغيير وليست التنظير..

وأعتقد أن مصطفى كمال ذا النزعة الأوروبية هو الرجل الذى استهوى موسولينى أيضا.

والنازية، فلسفة هتلر، قد تأثرت بالفاشية.. وتأثرت بالجانب الألمانى من الفاشية.

فموسولينى قد أعجب جدا بفلسفة القوة عند الفيلسوف الألمانى نيتشه. وموسولينى له دراسات مطولة عن فلسفة القوة. ومن كل ما كتبه نيتشه هذا أعجب موسولينى بعبارة تقول: الشعوب أطفال يجب أن تكرهها الأمهات على تناول الدواء والشعوب لا تعرف مصالحها، وإنما يعرف ذلك رجال العمل.. رجال الثورة.

ولذلك تأثر هتلر بموسولينى، وكلاهما تأثر بمصطفى كمال أما الثورة الصينية فلا شك أنها تأثرت بالثورة الشيوعية الروسية..

وكان اشتغالى بالسياسة مبكرا.. ولو أننى أحصيت سنوات خدمتى فى الجيش لوجدتها خمس سنوات ونصف سنة، بينما حياتى السياسية قد بلغت خمسة أمثال ذلك.

وهذا يفسر أشياء كثيرة فى سلوكى السياسى، ومذهبى الثورى بعد ذلك. وليس من قبيل الصدفة أن أجد بين يدى كتابا اسمه «الذئب الأغبر» - أى مصطفى كمال ومن تأليف أرمسترونج. وقد بقى هذا الكتاب فى يدى طويلا .. وبقى فى خيالى أطول وعلى كثرة ما قرأت فى السياسة شرقا وغربا فإن مثل هذا الكتاب بأسلوبه ومعانيه وقدرة مؤلفه على النفاذ إلى أعمق أعماق مصطفى كمال لا يغيب عن خيالى .. هذا الإعجاب بمصطفى كمال بالذات؟ هل هو الإعجاب بالبطولة؟ هل هو الأمل فى أن يكون عندنا مثل هذه القدوة أو الموهبة العظيمة هل أملى فى أن أكون شيئا من ذلك؟

لا أعرف.. ربما كل ذلك أو بعض ذلك ولكن فى ذلك الوقت كنت مغرما بهذا الرجل ولست إلا واحدا من بين ملايين .. وأنا كنت واحدا من الذين تنبهت فيهم الحاسة السياسية فى سن مبكرة.. فكان اشتراكى بالعمل السياسى واصطدامى بالسلطة ودخولى السجن ونشر قصتى فى كل الصحف عند اعتقالى وعند محاكمتى وعند الافراج عنى.. ويوم قامت ثورة يوليو كنت الوحيد الذى يعرفه الناس. وقد سبب لى ذلك بعض المشاكل. وأقول بعض المشاكل. ولكنى فيما بعد سوف أقول: بعض المتاعب. وأحمد الله أنها سببت لى ذلك، فقد كانت صدمة عنيفة أفقت بعدها على فهم جديد لثورتنا.. واهتديت بعد ذلك إلى سلوك خاص..

ومثل هذه الصدمات هى التى تجعل الإنسان يرى الدنيا أوضح .. أو يرى نفسه أوضح . هذه الصدمة مثل البرق الذى يسبق الرعد الذى يسبق المطر، فالرعد يكشف الأرض والسماء فى لحظة واحدة..

وفى هذه اللحظات البارقة يكتشف الإنسان ذاته. وأعظم ما يكتشفه الإنسان فى حياته: أن يكتشف ذاته. أن يعرف من هو؟

قليلون جدا عرفوا ذلك. لأنه من الممكن أن يعيش الإنسان. بالطول والعرض. ولكن لا تتاح له فرصة يجلس فيها إلى نفسه.

وفجأة تبرق الدنيا فإذا هو يرى نفسه ويعرف: من أنا؟ ومن هؤلاء الذين حولى؟ ما الذى أستطيع وما الذى يريدون؟ أين الصديق وأين العدو؟ وأهم من ذلك: أين الطريق.. أسلم الطرق.. أصح الطرق؟ ثم على أى شيء يختلف الناس حولى؟ ما الذى يريدون وما الذى أريد؟

فى لحظات قليلة يهتدى الإنسان إلى نفسه .. وقد تضيع هذ اللحظة التى لا يمكن تعويضها. ومن هنا كان توفيق الله عظيما، عندما انكشفت لى نفسى وعندما هدانى الله لأن أعرف بالضبط ما الذى أساويه وما الذى يساويه غيرى.. ما الذى أريد وما الذى أقدر عليه.

فى مناسبتين اثنتين يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه:

- عندما يكون وحده فى السجن.

- وعندما يكون الإنسان فى الحرب.

ففى السجن ليس معى إلا نفسى.. والعالم كله ابتعد.. والناس والخلاف والشقاق والزحام والتضارب بالأكتاف .. كل ذلك بعيد عنى .. وراء الجدران السميكة والأبواب الخرساء .. الدنيا كلها هناك .. ولم يبق لى من الدنيا كلها إلا: هذه الغرفة المظلمة.. إلا هذه الزنزانة رقم ٥٤.. وإلا أنا .. وفى هذه الوحدة، فى هذه العزلة، أجد نفسى . وأحاسبها. واستريح إلى تصفية الحساب اليومى .. وانهى كل ليلة حسابى بهذه العبارة: من أجل مصر فعلت كل شيء وأنا مستريح الضمير تماما.

ها أنا ذا نادم على فعلتى، أبدا لست نادما. ولو عادت بى الأيام، ما فعلت غير الذى فعلت..

وفى الحرب: كل شيء فى الحرب يهون.

الموت يهون، الطعام الأسرة، لذة الدنيا فنحن جميعا أمام معركة واحدة وقد نذرنا أنفسنا لله وللوطن.. وفى أية لحظة يمكن أن تنطلق رصاصة لتصيب واحدا دون واحد. فالموت قريب إذا شاء الله، يبعد إذا أراد الله ..ولا تملك نفس لنفس شيئا.. وفى هذا التجرد التام. وفى هذه الصلابة النبيلة، تحت السماء. وتحت النار وعلى الرمل.. هنا يجد الإنسان نفسه. فإذا وجدها فليتمسك بها.. فليس يحدث كثيرا أن يجد الإنسان نفسه.

وأحمد الله أننى وجدت نفسى، أو بعض نفسى فى مرحلة مبكرة من حياتى..

ثم جاءت بعض الصدمات التى سأرويها بعد قليل، فتفتحت الدنيا أمامى أوسع وأعمق.. فرأيت الآخرين، وفى صوتهم وفى ظلالهم ومعهم وبهم وضدهم: عرفت نفسى..

إن ثورة ٥٢ ثورة بكل معانى الكلمة. وكان جمال عبد الناصر هو دينامو هذه الثورة.

وفى الوقت الذى كنا جميعاً متفرقين فى الجبهة.. وفى الوقت الذى كان آخرون فى أماكن نائية لكى يتقاضوا أجراً مضاعفاً، كان جمال عبد الناصر يعمل ويتصل ويخطط فى القاهرة. وكان شخصية. وكان تفكيره جباراً.

والثورات كالناس. فهناك أناس يموتون وهم أطفال وهناك أناس يشيبون ثم يموتون. وهناك أناس مثل ثورتنا هذه يشبون قبل الأوان. وقد شابت ثورتنا. وبلغت شيخوختها فى الستينات.. أو فى نكسة ٦٧. وجمال عبد الناصر هو أول من تنبه إلى أنه لا بد من قيام ثورة أخرى على الثورة. كتب ذلك بخط يده. وهى حادثة معروفة .. ومن مظاهر شيخوختها: الانحرافات والتسيب والنكسة..

البحث عن البداية..

أما كيف بدأت ثورة ١٥ مايو؟ فالإجابة عن هذا السؤال نجدها فى ثورة يوليو.

وفى تكوينى النفسى والسياسى. وكما قلت لا يمكن أن نبدأ هذه الثورة بسطر ونصف سطر فى الصحف عن إقالة على صبرى الذى كان على رأس مراكز القوى .. وإنما المسألة أخطر وأكثر جدية من ذلك.. والثورة مثل الأنهار الكبيرة. صحيح أن لها منبعاً واحداً.. ولكن منابع الأنهار، كمنابع الثورات عبارة عن أمطار غزيرة تنزل على جبال بعيدة.. وهذه الأمطار تتجمع فى نهيرات صغيرة.. ثم تتجمع النهيرات والجداول لتصب فى المجرى الكبير متجهة بكل حيوية وقوة وخصوبة إلى الوادى لتكون فيه حياة جديدة للناس.

هناك من يرى أن بداية الثورة فى نفسى، أو الثورة على شخصى قد بدأت عندما اختارنى جمال عبد الناصر النائب الوحيد لرئيس الجمهورية قبل سفره بلحظات إلى مؤتمر القمة فى الرباط سنة ١٩٦٩. يومها فوجئت بقرار جمال عبد الناصر. فقد قلت له: إننى اكتفى بلقب مستشار. ولكنه أصر وحلفت اليمين. ونشرت الصحف ذلك، وسافر جمال عبد الناصر.

يومها، قد أثار هذا الاختيار حقد الكثيرين.

ربما كانت هذه هى البداية النفسية، لعدد من المواقف المعادية لشخصى والمعادية للبلد كلها بعد ذلك.. والذين يهتمون بالتفسير «السيكولوجى» للتاريخ، سيجدون فى هذا الحدث بداية

لخيط جديد من تصارع الأشخاص أو العقول أو بداية لتفجير الحقد بين مراكز القوى وبينى.. أو على الأصح بين حقدهم علىَّ فلم أكن حاقداً على أحد. وأكره الحقد. ولا أزال أرفع شعار الحب بيننا كأفراد عائلة واحدة. وشعار العلم والإيمان كدولة، أى حب الله. وحب العلم .

وأنا لا أرفع الشعار فقط. وإنما أعمل به وأشجع عليه وأؤكده فى مناسبات كثيرة، لو ذكرتها الآن لأفسد المعنى النبيل الذى أقصده، لأنها سوف تكون نوعاً من المن، هذا ما أمقته تماماً..

هل تبدأ ثورة مايو بعد قيام ثورة يوليو مباشرة عندما اجتمعنا بعد نجاح الثورة. وجلسنا ننهى الجمعية التأسيسية لثورتنا، ونختار – مجلس الثورة. لأننا بعد نجاح الثورة اكتشفنا فجأة أننا القوة المسئولة عن مصير مصر.. فجأة ودون أن ننتبه لذلك، ودون أن تكون لنا تجارب فى الحكم وإدارة شئون الدولة..

اجتمعنا مساء ٢٧ يوليو ٥٢، أى بعد رحيل الملك بيومٍ واحد وأصر جمال عبد الناصر على أن تؤخذ الأصوات على شكل الحكم: هل يكون حكماً ديمقراطيا شعبياً أو دكتاتورياً فردياً؟ وكنا ثمانية .. أما التاسع خالد محيى الدين، فلم يكن حاضراً، فقد كان أعضاء الهيئة التأسيسية قبل قيام الثورة تسعة .. وكان غريبا أن يطالب جمال عبد الناصر بأخذ الأصوات. فهو يعلم مدى تقديرنا له واعزازنا لشخصه واعجابنا به .. فلم يكن هناك أى داع للتصويت على شىء.. فالذى يريده هو ما سوف نقره عليه .. وكان من الطبيعى لشبان مثلنا قد تجاوزوا الثلاثين بقليل، ومعجبين بكمال أتاتورك الذى أعجب به موسولينى وهتلر، أن نختارها دكتاتورية. طبيعى فنحن شبان. ثم إننا حريصون تماماً على أن يتم كل شىء بسرعة. فقد جربنا الأحزاب والبرلمانات والجلسات والخطب والبيانات. جربنا صناعة الكلام الذى غرقت فيه مصر.. إذن لا بد من أسلوب جديد.

هو: العمل. والعمل السريع والقرار الواحد.. لقد حقق هتلر فى ست سنوات ما لم تستطع أن تحققه ألمانيا فى عشرات السنين .. وكذلك فعل مصطفى كمال.. إذن يجب أن يكون الحكم دكتاتوريا فرديا سريعا.. وقلت: لا داعى لأخذ الأصوات .. فالموقف لا يحتاج إلى شىء من ذلك..

صدمة حياتى كلها!

وبكل حسن نية وبساط وحب عميق لجمال عبد الناصر، حاولت أن أتفادى التصويت وأخذ الآراء.. فلخصت ما قاله كل أعضاء مجلس قيادة الثورة .. لكى أنتهى إلى نتيجة واحدة هى:

لا داعـى لأخذ الأصوات. فنحن نعرف ماذا تريد.. وفى نفـس الوقت وجدناها فرصة لتأييد جمال عبد الناصر، وتأكيد زعامته.. وجمال عبد الناصر هو صديق عمر لعبد الحكيم عامر بل هو صديقــه الأوحد.. وهو أيضا صديقى. فالذى بينه وبينى احترام ومحبة وتقدير وفى نفس الوقت كنت حريصاً على ألا أدخل فى صراع معه أو مع أى أحد. منذ ذلك اليوم..

وفجأة .. وأقولها مرة أخرى: وفجأة وجدت جمال عبد الناصر فى حالة غضب. وسخط ومرارة لم أرها من قبل وفجأة وجدته يقول: يا أخى أنت تتكلم كما لو كنت رئيسا لمجلس الثورة!

هذه هى الصدمة الأولى فى حياتى ..

صدمنــى جمال عبد الناصر. فقد كنت حســن النية.. ولم يفهــم. وكنت أريد أن أجنبه أن يكون «موضوعاً» للمناقشة.

أو يكون «رأيه» موضوعاً للخلاف والتصويت.. فقد أردت أن «أثبته».. أى أن أجعله حقيقة ثابتة ولكنه لم يفهم هنا لمعت فى رأســى معان كثيرة. وعرفت بالضبط من أنا ومن هو. ومن هم. وحمدت الله أن كان هذا الاكتشاف أو الانكشاف مبكرا..

وأخــذت الأصوات الســرية فكانت ســبعة أصوات: دكتاتورية وكان هــو صاحب الصوت الوحيد الذى يطالب الديمقراطية ودارت مناقشات بعد ذلك.. لا تختلف عن التى أثرتـها قبل التصويت ومعناها: أننا يجب أن نكون دكتاتوريين وأنه ما كان ينبغى أن نختار الديمقراطية.. فهو يعلم جيدا ما الذى حدث فى مصر.

وغضب جمال عبد الناصر لأننا اختلفنا عنه .. أو للمناقشات التى دارت. وتركنا وأرسلنا من يصلحه. ويقول له: أفعل ما تشاء لا داعى لأن تغضب!

وهناك صدمة ثانية أعنف قد وضعت قدمى على الطريق الصحيح، وبمنتهى العنف، وليس من المناســب أن أذكرها الآن هذه الصدمة من الممكن أن تكون بداية للخيوط التى يتكون منها نسيجى النفسى باعتبارى شريكا فى ثورة يوليو إلى جانب مسئوليتى عن ثورة مايو ..

وقــد لا حظ بعــض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين أننى لم أشــارك فــى الحكم، بينما اشترك كل زملائى فى الوزارة. وذهبوا فى تفسير ذلك إلى بعيد جدا.

فمنذ ٥٦ حتى ٦٩ لم أشــترك فى الســلطة التنفيذية.. ولا شــأن لى بالوزارة .. بل إننى عملــت فى مجلس الأمة وكيلا بينما كان الرئيس عبد اللطيف بغدادى. وقد تســاءل كثيرون كيف قبلت ذلك ..

والحقيقة أن جمال عبد الناصر طلب منى ذلك وقال: إن المصلحة تقتضى الكثير. فوافقت.. ولم أجد ضيقا ولا مرارة فى أن أكون مرءوسا لزميل فى مجلس قيادة الثورة. ثم عملت رئيسا لمجلس الأمة مرتين: برلمان الوحدة مع سوريا وبرلمان ٦٤.

وقـد اتفقـت مع جمال عبد الناصر على أن أعتزل الحياة السياسـية بعـد ذلك. فأقيم فى قريتـى ميت أبو الكوم. واقترحت على جمال عبد الناصر أن يزورنى فى نهاية كل أسـبوع، لعله يستريح بعض الوقت، ولعلنا نتحدث فى شئون مصر.. بعيدا عن الضوضاء وعن الزحام.. وعـن الحساسـية التى بدأت منذ سـنوات عندما أحس الكثيرون أننى عنـد بدء الثورة كنت معروفا شعبيا قبلهم جميعا..

وهنا تحضرنى عبارة للحكيم الصينى كونفوشيوس تقول: احترس من الشهوة فى شبابك، والمزاحمة فى رجولتك، والجشع فى شيخوختك..

هذه الحكمة مكتوبة فى كراستى التى احتفظت بها وخرجت بها من السجن..

ففـى رجولتنا كثير من الزحام. والزحام يجعلك تضـرب الناس وتدوس عليهم. والزحام يخلق المنافسـة والمنافسـة هى أخت الكراهيـة، والكراهية أم الحقـد.. والحقد هو الأب الحقيقى لكل الحروب بين الناس وبين الشعوب..

وعندما اكتشـفت ذاتى، أو عرفت الكثير من جوانب نفسـى .. تراجعت إلى الوراء لكى أرى الصورة أمامى أوضح.. أو تراجعت، كما نفعل فى الريف، عندما يحاول الإنسان أن يقفز من فوق قناة .. يتراجع لكى يقفز أوسع وأرفع.. خطوة خطوتين إلى الوراء.. ثم تسلقت سلما ورحت أتأمل الناس من فوق ومن بعيدا ما هذا الزحام. بل ما هذه الشـهوة على الزحام.. وما هذا الجشع على الأماكن والمناصب والسلطة..

لقد كنت صادقا مع نفسـى ومع جمال عبد الناصر، عندما طلبت إليه أن أعتزل فى نهاية ١٩٦٩، وأن أذهـب إلـى قريتى.. إلى أرضى وأهلـى وحياتى العادية.. وأجد نفسـى هادئا مسـتريحا أتفرج دون مشـاركة، إلا إذا طلب منى جمال عبد الناصر رأيا أو فكرا أو قرارا.. والله يعلم أننى كنت جادا.

ولكـن يبدو أن جمال عبد الناصر لم يفهمنـى، أو لم يدرك المعنى الذى أدركته قبل ذلك بسـنوات يوم التصويت على شكل الحكم فى مصر.. ويبدو أن الآخرين أيضا لم يفهموا ذلك.. وكعادتى دائما.. فإننى طويت نفسى على ما فى نفسى، وانتظرت .. ولم يكن انتظارى سلبيا،

وإنمــا كان ما يملؤنى هو أن حلم طفولتى قد تحقق بقيام الثورة. وكنت ســعيدا أكثر بأن على رأسها صديقا أتبادل معه التقدير والصداقة ..

وهنــاك بعض المؤرخين يرون أن ثورة مايــو قد بدأت فى عيد العمال فى أول مايو عندما أضفت عبــارة لجمال عبد الناصر لم تكن فى الخطبة المطبوعة التى قرأتها مراكز القوى قبل أن ألقيها على العمال.. وكانت هذه العبارة مفاجأة لهم أدت إلى صراع عنيف بينهم..

هــل هذه العبارة هى بداية ثورة ١٥ مايو؟.. فقد قلت فى العبارة التى كتبتها: إن جمال عبد الناصر قال وأنا من ورائه أردد: إن الشــعب هو المعلم وهو القائد وهو الخالد أبدا، وإن الشــعب هو صاحب هذا البلد، وهو الذى ســيخوض مع قواته المســلحة معركة الحياة بكل مسئولياتها، وما تفرضه من تضحيات.

إذن فليس من حق أى فرد أو جماعة مهما كان هذا الفرد أو تلك الجماعة أن تزعم لنفسها قدرة منفصلة عن قدرة هذا الشــعب أو أن تدعى لنفســها موقعا تســتطيع أن تفرض من خلاله رأيها على جموع الشعب أو أن تنشر شعارات أو مناورات تحاول أن تشكل من خلالها مراكز قوة تفرض منها وصايتها على الشــعب بعد أن أســقط هذا الشعب مع جمال عبد الناصر، كل مراكز القوى ليبقى الشعب وحده سيد مصيره..

ربما كانت هذه بداية .. ولكنها ليســت إلا إحدى البدايــات.. وإنما هناك خيوط وروافد تبدأ منها ثورة مايو..

ويكفى أن أذهب إلى أبعد من ذلك بكثير.. أبدأ وعلى مســئوليتى أنا فى التفسير والتقدير إلى يوم وفاة جمال عبد الناصر .. والأيام التالية.

جمال عبد الناصر مات يوم الاثنين ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ فقد كان ذلك اليوم رهيبا. وقد اهتزت مصر والأمة العربية. وكان الموقف عصيبا.

وكانت الجنازة يوم أول أكتوبر مهيبة.. وقد أعطيت خمس حقن فى مجلس قيادة الثورة حيث بدأت الجنازة عندما سقطت من الإعياء، ولم استطع الاشتراك فى الجنازة، وعندما أفقت سألت إن كان جثمان عبد الناصر قد دفن. فقيل إنه دفن. فحمدت الله. فقد كنت أخشى أن يفلت الموقف من أيدينا فتندفع موجات الجماهير بنعش جمال عبد الناصر. وقد حدث شىء من ذلك..

دفــن عبد الناصر يوم الخميس أول أكتوبر ســنة ١٩٧٠.. وقررت دعوة اللجنة التنفيذية العليا يوم السبت ٣ أكتوبر. وفى يوم الجمعة ٢ أكتوبر جاءنى شعراوى جمعة وسامى شرف

ليقولا: إن أحد أعضاء اللجنة سوف يثير مشكلة. وهذه المشكلة سوف تؤدى إلى انقسام. وهذا الانقسام سوف يشغل البلد عن الظروف الصعبة التى تمر بها.

سألت: ما الذى سوف يثيره؟

قالا: إنه سوف يقول إنه لا داعى للاستعجال فى اختيار رئيس للجمهورية الآن.. وهل المقصود هو أن تختار اللجنة واحدا بالذات.. كان هذا العضو هو العضو الوحيد المتبقى من أعضاء مجلس قيادة الثورة.. وفى تقديرى أنهم هم الذين دفعوه لأن يقول ذلك.. لأنهم لا يستطيعون أن يرشحوا على صبرى .. وفى نفس الوقت لا يستطيعون أن يقولوا: إنهم لا يريدوننى..

وقد عرفت متأخرا جدا، أنه على رغم الكلام اللطيف الرقيق الذى قاله كوسيجن أثناء جنازة جمال عبد الناصر، فإن السوفيت قد خططوا من اللحظة الأولى أنهم لا يريدوننى.

أما تفصيل ذلك فليس الآن موعد إذاعته.. فى الأيام الأولى بعد وفاة جمال عبد الناصر وقبل تشييعه، خطر لى أن أبقى رئيسا للجمهورية بالنيابة حتى تنتهى فترة ولاية جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٧١.

كان فى ذلك تكريما منى لجمال عبد الناصر، وتفاديا لأية مشكلة عاجلة .. وقد كنت حزينا على وفاة جمال عبد الناصر على رغم أننى قد توقعت هذه النهاية.. ولكن هذا التوقع لم يخفف من هول الحادث.. فعلى ما يبدو كانت، وبالذات مراكز القوى رقم ٢ وهى الثلاثى على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعة، يعرفون من الطبيب الروسى الذى جاء لعلاج جمال عبد الناصر أنه لن يعيش أكثر من عام. وهذا ما حدث فعلا وهذا هو الذى دفع مراكز القوى إلى الهجوم على جمال عبد الناصر على كل المستويات والدعوة والتمهيد للخلاص منه وقبل تشييع الجنازة تحدثت مع الرئيس هوارى بومدين فى هذه المسألة. فلم يوافقنى بومدين. ورأى فى الانتظار البلبلة وأن أية بلبلة فى مصر سوف تهز العالم العربى كله. فمصر قلب العالم العربى . وهذه البلبلة هى «لغط» لقلب الأمة العربية كلها.. ولذلك فإنه لا يوافقنى على رئاسة الجمهورية. وكان هذا الحديث يجرى بينى وبين بومدين فى قصر القبة قبل تشييع جنازة عبد الناصر، وبعد أن مضى يومان على الحديث، وقبل تشييع عبد الناصر، وبعدما رأيته من مناورات خارجية وداخلية، إلى أن طلبت من شعراوى جمعة باعتباره أمينا للتنظيم أن يدعو اللجنة التنفيذية العليا لتسمية من تراه رئيسا للجمهورية يوم السبت ٣ أكتوبر.. أى بعد يومين من تشييع عبد الناصر يوم أول أكتوبر. وبعد ذلك تنزل التسمية

يوم الاثنين ٥ أكتوبر إلى اللجنة المركزية.. وفى يوم الخميس التالى مباشرة يجتمع مجلس الشعب ليعرض عليه اسم رئيس الجمهورية.. أو أية أسماء أخرى.. وقد أدى هذا القرار إلى ارتباك مراكز القوى.. أول مراكز القوى هذه هو الصحفى محمد حسنين هيكل، وكان الأول أيام جمال عبد الناصر.. ولكنه أصبح الثانى فى عهدى. أما مركز القوة الثانى فى أيام جمال عبد الناصر، والأول فى عهدى، فهو شعراوى جمعة وسامى شرف وعلى صبرى..

وكلما تصورت أن هؤلاء من مراكز القوى هم الذين يطمعون فى حكم مصر، أشفقت على مصر العزيزة الغالية.. هل صحيح إنها محكوم عليها أن يتحكم فيها الأغوات فقد حدث أن مات السلطان أيام الفاطميين فجأة فالتقى الأغوات واتفقوا على حكم مصر حكما جماعيا، وكان هذا الحكم الجماعى هو أعظم إهانة وجهت إلى مصر فى كل العصور.. وسوف تكون هذه الإهانة الثانية. لو حكمها هؤلاء التافهون، أو الذين وصفهم ممدوح سالم يوم طلبت إليه أن يكون وزيرا للداخلية بأنهم ورق وقش!

وحاول شعراوى جمعة وسامى شرف أن يثنيانى عن انعقاد اللجنة التنفيذية العليا. فرفضت. فطلب الاثنان منى: إن كان لدى مانع أن يخرج معى فى طريقى وفى سيارتى إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى، حيث تعقد اللجنة التنفيذية العليا، عضو مجلس الثورة السابق الباقى وعلى صبرى اللذان ظلا يقيمان معى فى قصر القبة من ليلة ٢٨- ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٧٠، وهى ليلة وفاة جمال عبد الناصر إلى يوم تشييع جنازته الخميس أول أكتوبر.

قلت: لا مانع..

وفى طريقنا من مصر الجديدة إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى سألت عضو مجلس الثورة الباقى، وقد كان معى فى السيارة هو وعلى صبرى، عن وجهة نظره هذه، فأعاد ما سمعته من سامى وشعراوى من أنه لا داعى للاستعجال فى تسمية أو انتخاب رئيس الجمهورية، فإن هذا الاستعجال يدل على أننا نريد اختيار شخص بالذات.

قلت: لا مانع من أن أسمع رأيك فى اللجنة التنفيذية العليا. وأنا أحب المواجهة. وأن يكون كل شىء واضحا.

وللتاريخ أقول: إن ما قاله بومدين كان له أثر عميق فى نفسى. وقد نبهنى إلى أشياء كثيرة.. وهناك سبب آخر لم يكن فى حسابى فقبل انعقاد اللجنة التنفيذية العليا بيومين جاءنى من القوات المسلحة أننا فى حاجة سريعة إلى قائد أعلى يكون مسئولا عن إعطاء الأوامر من أجل متابعة المعركة، فلابد من هذا القائد فورا وبسرعة..

وأنــا باعتبــارى نائــب رئيــس الجمهوريــة، لســت قائــدا. لأن القائــد هــو رئيــس الجمهورية المنتخب. وفى اجتماع اللجنة التنفيذية العليا حدث ما توقعته فقد طلب الكلمة العضـو الباقى من مجلس قيادة الثورة. وكرر ما ســبق أن قاله من أنه لا داعى للاســتعجال. فالاســتعجال معناه أننا نريد أن نضع شخصا بالذات. ونفرض أن الجماهير رفضته. ألا يكون ذلك رفضا لثورة يوليو نفسها وقد يكون هناك تجريح على هذا الشخص؟!.

وطبعا كان يقصدنى.

وطلــب د. محمود فوزى الكلمة وقال: إن جنــازة جمال عبد الناصر التى كانت أول أمس تؤكد خروج خمسة ملايين من الشعب ليس لجمال عبد الناصر وحده وإنما لثورة يوليو أيضا.. فإذا نحن سمينا شخصا ورفضته الجماهير فهى قد رفضت الشخص ولم ترفض الثورة!

وتكلمت أنا قائلا: أنا جمعتكم هنا فى اللجنة العليا لكى تسموا واحدا حسب النظام الذى نسـير عليه ولم أقصد أن تســمونى أنا بالذات. وأحب أن أؤكد لكم الآن. إننى لن أترك قيادة مصر. لن أترك قيادة مصر إلا لشـخص اختاره الشـعب. وإذا فرض أنكم سميتمونى ورفضنى الشعب، فعندى من الشـجاعة ما يجعلنى أجمعكم هنا مرة أخرى ونسمى شخصا آخر.. إلى أن يوافق الشــعب، وكررت أننى لن أترك مكانى إلا لرئيس منتخب من الشعب. فهذه أمانة. وأنا أقدس الأمانة.

ولــم يرد أحد على ما قلت. وهنا رفع عبد المحســن أبو النور يده قائلا: أنا أرشــح أنور السادات.. ونسميه رئيسا للجمهورية..

قلت: إن عبد المحسن أبو النور يرشحنى..

فوافقوا على ذلك بالإجماع!

وليس من الصعب على من يتابع سير هذه الأحداث وسرعة تلاحقها أن يعرف أى نوع من الناس هؤلاء. وكيف يفكرون وكيف يسهل ايقاعهم وتخبطهم. وكيف إنهم ليسوا صفا واحدا ولا قلبا واحدا .. وإنهم يتربصون بعضهم ببعض.. وكل واحد منهم يراقب الآخر ويسجل له مكالماته التليفونية.. وتشــاء إرادة الله أن تكون هذه التسجيلات سندا لى فى اتخاذ قراراتى الحاسمة بعد ذلك .. لقد أرادوا شيئا، وأراد الله شيئا آخر .. فالحمد الله على ذلك.

ويمكــن أن تكــون بداية الصراع المكشــوف بينى وبينهم بعد يــوم الأربعين لوفاة جمال عبد الناصــر. وأقول من الممكن أن تكــون بداية. فان لم تكن البداية الحقيقية فهى تصـلح أن تكون إحدى البدايات للصراع المفتوح المفضوح بين مركزى القوة الأول والثانى.

بداية الصراع..

فقد صدر مقال فى ذكرى الأربعين لجمال عبد الناصر فى جريدة الأهرام بعنوان «جمال عبد الناصر ليس اسطورة» وقد اعتبره لبيب شقير - ممثلا لمركز القوة الثانى - عضو اللجنة التنفيذية العليا نوعا من الخيانة العظمى.وقد ترافع لبيب شقير بمنتهى الفصاحة والبلاغة. وكان الغرض واضحا أمامى أن مركز القوة الثانى: شعراوى جمعة وسامى شرف وعلى صبرى يريدون التخلص من مركز القوة الأول محمد حسنين هيكل. وإن هذه هى الفرصة المواتية. وقد أجمعوا آراءهم على ذلك فإذا ما اتخذ قرار ضده فى اللجنة المركزية تكون الأغلبية له وبذلك ينتهى مركز القوة الأول الذى لم يستطيعوا التغلب عليه فى حياة عبد الناصر.

هذا هو الهدف الأول. هناك هدف أهم من ذلك. أنهم يريدون أن ينتهزوا هذه الفرصة ليؤكدوا لى أنهم مصدر السلطة فى صدور القرارات، لأن لهم الأغلبية، وعلى ذلك فإذا أردت أن أتخذ قرارا فلا بد أن أرجع إليهم. أى لا رأى لى ولا قرار. الرأى والقرار لهم وحدهم.. أما أنا - أى رئيس الدولة - فلست إلا صوتا ضمن أصوات أخرى..

وانتهزتها فرصة لكى أؤكد أسلوبى فى الحكم أو فى التفاهم مع الآخرين: المواجهة .. أى لا بد أن يتواجه هؤلاء جميعا مع ذلك الصحفى الذى أدانوه .. ولا بد أن يدافع عن نفسه. أى لا حكم بلا محاكم. ولا قرار بلا مواجهة. ولا اتهام بلا مبرر. والإنسان برىء إلى أن تثبت إدانته.. وليس مدينا حتى تثبت براءته..

وفتحت باب المناقشة لكى أعرف الحاضرين أكثر.. وأذكر أنى قرأت أن الفيلسوف سقراط هو الذى كان يقول لتلامذته عندما وجد واحدا لا يتكلم فقال: تكلم حتى أراك..

فطلبت إليهم أن يتكلموا لكى أراهم أوضح .

فقد لاحظت أن هناك ترتيبا أو اتفاقا بين الجميع .. ولكن لا أعرف مضمون هذا الاتفاق أو تفاصيله.. وأجمع الحاضرون على الهجوم على صاحب المقال: المعتدلون هاجموه وأدانوه وطلبوا ألا تذاع أسرار هذه الجلسة والمتطرفون أيضا وهذا أمر طبيعى. إلا الدكتور محمود فوزى فقد كان معتدلا.. وكان الغرض أن يتخلص مركز القوة رقم واحد من مركز القوة رقم ٢ بعد أن استمر فى السلطة وفى الحكم الفعلى طويلا .. وانتصر عليهم فى أكثر من معركة أيام عبد الناصر بل إنهم اعدوا محاميا شابا ليكون رئيس تحرير الأهرام، بدلا منه..

أما د. محمود فوزى اتخذ موقفا وسطاً وتكلمت أنا فقلت: أحب أن أقول للجنة العليا إننى لا أحكم على أحد قبل مواجهته.. أى لا بد أن نواجهه لكى يتمكن من الدفاع عن نفسه.

ورفعت الجلسة. وأدى ذلك إلى ارتباك مركز القوة هذا. فلم يكن فى الحساب ألا يتخذ قرار. أو على الأصح ألا يفرضوا قرارهم على ..

وفى الجلسة التالية فوجئ أعضاء اللجنة العليا، وأنا أضغط على زر الجرس وأطلب رئيس تحرير الأهرام. فقد أبلغ بضرورة الحضور إلى اللجنة. ولذلك كان موجوداً فى مبنى الاتحاد الاشتراكى. وأدخلوه. وجلس على الطرف الآخر من الترابيزة.. كنت على رأسها والأعضاء على الجانبين فجلس فى مواجهتى. وتكلمت وقلت: يا دكتور لبيب شقير أعد ما سبق أن قلته فى الجلسة الماضية عن المقال الذى نشر فى الأهرام.

أما الذى حدث فهو أن لبيب شقير لم يعرف ماذا يقول. راحت الفصاحة والبيان. وقد حاول أول الأمر أن يوجه أسئلته إلى كاتب المقال، فرفضت هذه الصورة وقلت: ليس المطلوب هو أن تناقشه.. وإنما أن تعيد على مسامعه ما قلته للجنة .. أما الأسئلة فسوف تتولى اللجنة العليا توجيهها إليه..

وقال كلاماً مفككاً ولم ترد فيه كلمة «الخيانة» .. وطلبت إلى كاتب المقال أن يدافع عن نفسه.. فأخرج المقال من جيبه وراح يناقش فقراته طويلا.. وانتهى بأن قال: إنه كان أقرب واحد إلى جمال عبد الناصر.. وطلبت إليه أن يخرج بعد أن دافع عن نفسه. ونزل إلى مكتب سامى شرف فى الدور الأسفل ليسمع بقية المناقشة وقد كانت الجلسة مسجلة. ولم أفهم كيف سمح له سامى شرف أن يتابع بقية المناقشة.

وقلت لأعضاء اللجنة العليا: لقد سمعنا رأى رئيس التحرير ورأى لبيب شقير أحب أن أسمع آراءكم.

فلم يعلق أحد بشىء..

وكان واضحا أن مركز القوة الأول خسر معركته مع مركز القوة الثانى.

وقد علمت بعد ذلك كيف عنف ضياء داود صديقه لبيب شقير.. وأنا أرى أنه ليس من الواجب أن نندفع إلى اتهام أحد بالخيانة دون بينة، أو دون محاكمة.. حتى لا يتشكك الشعب فى آرائنا أو فى الوزن الحقيقى لهذه الهيئة رفيعة الشأن..

وقبل أن أنهى المناقشة كررت عليهم ما سبق أن قلته. أسلوبى هو المواجهة. أسلوبى هو المصارحة. لا تقارير سرية. لا اتهامات بلا أدلة. لا إدانة بلا محاكمة.

وكانوا فى غاية الغيظ.. لقد تكرر فشلهم مرة بعد مرة.

الصراع الثانى

وهناك معركة أخرى مكشوفة خسرتها مراكز القوى. وكانت هذه المعركة صراعا مفضوحا هزيلاً وكان ذلك بسبب الوحدة مع ليبيا وسوريا والسودان عرضت الاتفاق الذى تم فى بنغازى على اللجنة التنفيذية العليا. فرفضته بخمسة ضد ٣ أصوات. وظنوا أن هذا قرار نهائى. ولكن قلت لهم إن القرار النهائى للجنة المركزية. ولم يكن هذا فى الحساب أيضا. وأنهم لن يتعلموا. فهم ليسوا سياسيين فالسياسى هو الذى يضع حسابات. وأهم مبادئ الحساب السياسى أن تكون هناك احتمالات.. أو تكون هناك بدائل.. ولكن الرجل الذى لا يرى إلا طريقاً واحداً لحل مشكلة واحدة هو رجل قصير النظر أو قليل الحيلة. وقد تأكد لى تماماً أنهم جميعاً كذلك.

وطلبت إلى شعراوى جمعة أمين التنظيم بعد هذا القرار، أن تنعقد اللجنة المركزية. وجاءتنى المعلومات من الأقاليم تقول: إن التعليمات لديهم بأن يعارضوا وأن يرفضوا.

واجتمعنا وبدأ على صبرى الكلام. وكما وعدهم فى التسجيلات، التى سجلوها على أنفسهم بأصواتهم، بأن يكون قليل الأدب فى حديثه معى وسوف تؤدى قلة الأدب وقلة الحياء إلى أن أفقد أعصابى. فإذا فقدتها تكاثروا هم وتغلبوا على الموقف. فأخسر هذه المعركة. وكان من رأى على صبرى أنه سوف يبدأ بإخراجى عن هدوئى. وعليهم أن يكملوا الخطة.. وبعد أن تكلم على صبرى فى اللجنة المركزية تبعه ضياء الدين داود فكان أكثر وقاحة. (ضياء داود حر وهو يعمل فى المحاماة آمن على يومه وغده وحياته ورزقه مع معاش استثنائى قرر لعائلته أثناء سجنه.، وباق إلى اليوم) ..

ولاحظت أن خمسة فقط من أعضاء اللجنة المركزية، وعددهم ٢٢٠ يمسحون الأرض بأقدامهم، كما يفعل تلامذة المدارس عندما يدق جرس نهاية الحصة والمدرس ما يزال ماضيا فى الشرح.. أو كما يفعل جمهور كرة القدم يتعجلون الحكم أن يطلق صفارته وإنهاء المباراة..

هؤلاء الذين يدبدبون بأقدامهم كانوا خمسة من ٢٢٠ عضواً..

انتهت هذه المعركة أيضاً بالتسليم بما أردت. وحاول شعراوى جمعة أن يصلح ما بينى وبين على صبرى. ولكن لم أقبل أن يكون هذا هو الأسلوب فى الخلاف. فأنا أقبل الخلاف فى الرأى، وأرفض الصراع، مثل هذا النوع من الصراع..

وإذا حاولنا أن ننظر إلى هذا الذى جرى فسوف نجد أنها عدة معارك كل واحدة من الممكن أن تكــون بدايــة: معركة بعد دفن جمال عبد الناصر بيوم واحــد.. ومعركة ثانية بعد وفاته بأربعين يوماً ومعركة على الوحدة فى أبريل سنة ١٩٧٢.

ومن الممكن أن تكون كلها معركة واحدة على من الذى يســتطيع أن يتخذ القرار.. هل هو رئيس الجمهورية أو هو مراكز القوى الممزقة المتطاحنة والمتهالكة أيضاً.

وانتهت المعركة بتأكيد فشلهم جميعاً..

فــإذا قلت إنها جميعاً معــارك واحدة.. أو معركة واحدة متعــددة المواقع، فمن المؤكد أن ثــورة مايو قد تأكدت قواعدها الثورية التصحيحية ابتداء من شــهر مايو نفســه.. وإن كنت أرى أن يــوم ١٣ مايو هو اليــوم الكبير حقاً بما فيه من قرارات كان لها أعظم الأثر فى نفوس الناس.. أما يوم ١٥ مايو فهو يوم فرحة الشعب صاحب المصلحة الحقة فى تعديل مسار الثورة الأم، والثورة عليها، من أجل المزيد من الأمن والأمان، والحريات والعدل، وقيام المؤســـات الدســتورية والدستور الدائم لأول مرة، وانتصارات أكتوبر، وقيام الأحزاب والتطلع بثقة إلى غد مشرق وسلام قائم على العدل فى المنطقة كلها..

أول مايو ١٩٧١

هذا اليوم قد بدأ يوم ٣٠ أبريل. وكان يوماً طويلاً. فقد أعطيت فكرة الخطبة التى ســوف ألقيها لمحمد حسنين هيكل، كما كان يفعل جمال عبد الناصر..

وكما يفعل كل رؤساء الدول فى العالم. فكل واحد له كاتب لخطبه. وهذا الكاتب معروف. وقــد قابلت فورد ومعه كاتب خطبه. فالحاكم ليس عنــده وقت كاف لكى يكتب الخطبة فى أســبوع أو أســبوعين فعنده من المشــاكل الكثير. ولذلــك. فقد جرى العرف الــدولى، على أن يستعين الحاكم بالخبراء فى السياسة والقانون والاقتصاد والكتابة، يعطيهم أفكاره ويتركهم بعد ذلك يصوغون فكره وأسلوبه فى العمل..

وجاءت الكلمة التى سوف ألقيها..

أرسلت الكلمة إلى سامى شرف، وزير الدولة لشئون رياسة الجمهورية، لكى تكتب على الآلة الكاتبة.

بعد أن راجعتها. ومادامت قد أرسلت إليه فقد عرفها وقرأها بقية مراكز القوى..

وطلبت من محمد حسنين هيكل باعتباره مركز قوة أن يضيف هذه العبارة الخاصة بمقاومة مراكز القوى. فرفض وقال: أنا لا أستطيع. اكتبها سيادتك.

ولذلك فقد ظللت ساهراً حتى الساعة الواحدة من صباح أول مايو سنة ١٩٧٢، اكتب هذه الكلمة..

وذهبت إلى حلوان ألقى كلمتى. ووجدت أن مركز القوة رقم واحد قد أعد العدة لإفشال الاجتماع، وأنه قد أعد فى مواجهة المقصورة مجموعات تحمل صور عبد الناصر اعتقادا منهم أن ذلك يضايقنى. ولم يضايقنى ذلك فعندما ذهبت إلى السودان استقبلونى بصور جمال عبد الناصر. ولم أجد فى ذلك ما يضايقنى وإنما هى تحية لمصر وثورة مصر..

وفى حلوان أيضا، وفى هذا الاجتماع رفض مذيع أن يقدمنى لجماهير العمال. هذا المذيع سافر إلى ليبيا، وطلب أن يعود إلى مصر، فسمحت له بعودته إلى وطنه مصر. وفوجىء رجال البروتوكول بمجىء على صبرى. وهم يعلمون ما جرى منه فى اللجنة المركزية، ولم يعرفوا أين يضعونه.. وألقيت كلمتى. وصفق الناس طرباً. ثم قرأت الكلمة التى كتبتها بخط يدى، ولم يكن مركز القوة يعلم عنها شيئا. وكانت مفاجأة لمركز القوة الأول لأننى أعلنت أنه لا وصاية لأحد أو لمجموعة من الناس على هذا البلد. وذهب شعراوى جمعة وسامى شرف مركز القوة الأول إلى محمد حسنين هيكل مركز القوة الثانى الذى يريدون القضاء عليه. وسألاه: كيف كتبت هذه العبارة.

فأعلن: أنه لم يكتب ذلك وإنما الخطبة التى كتبها هى التى أرسلها لهم..

وهو فعلاً لم يكتب هذه العبارة. وإنما قال لى: اكتبها أنت بيدك. فأنت كاتب وتعرف فى صناعة الكلام..

ومن المؤكد أنهما لم يصدقاه. وقد أضاف عدم التصديق هذا إليهما مزيداً من الغيظ والتربص تمهيداً للانقضاض عليه. وأنا الذى خلعته من مراكز القوى الأخرى.

اتصلت بمحمد حسنين هيكل أقول له: يا أخى أرهقتنى. فبدلاً من أن تكتب أنت هذه العبارة جعلتنى ساهراً أكتبها وأعيد كتابتها حتى الصباح.. ولم أعرف إلا منه بعد ذلك بشهر أن شعراوى جمعة وسامى شرف قد ذهبا إليه معلنين براءته من تهمة كتابة هذه الفقرة.. فقد كانوا يسجلون عليه مكالماته كما كانوا يسجلون علىّ أنا أيضاً.

وقد أخذته وقلت له: يا أخى لماذا لم تخبرنى بأنهما جاءا إليك مساء يوم أول مايو.. لو فعلت لجعلتنى أتخذ قراراً آخر.

قال: لم أكن أعرف أين مركز القوة!

ولكنه كان خائفا. فعلا فقد أفزعوه فى ذلك اليوم وقالوا له: إن لديهم تسجيلات لكل إنسان فى مصر. وإن لديهم من التسجيلات ما يجعل أى إنسان يحنى رأسه خجلاً، ويهرب خوفاً. وبالفعل كان يخاف منهم حتى عندما كانوا فى السجن.

وفى اليوم التالى لخطبة أول مايو ١٩٧١ طلبت سامى شرف فى التليفون وقلت له:

يا سامى.

– أفندم.

حضر لى قرارا بإعفاء على صبرى من جميع مناصبه على أن تبلغ به الصحف، وينشر فى سطر ونصف فقط فى الصفحة الأولى من كل الصحف.

– حاضر يا أفندم.

روى لى أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة.. أنه كان ساهراً فى منزل أحد أصدقائه وفى الساعة الثانية عشرة دخل علينا واحد ومعه جريدة الجمهورية وكانت تصدر مبكراً وكان منشوراً فى صفحتها الأولى هذا الخبر.. وكان هذا الخبر مفاجأة لهم، وظلوا جالسين يعلقون ويفكرون فى الخطوة التالية لى ولمراكز القوى. وقد تولاهم الفزع..

فقد انخدع الناس فيه. فالناس قد ظنوه قوة كبرى، وأنه أخطبوط له أطراف، وهذه الأطراف قد أمسكت مصر كلها من أولها لآخرها.. ولذلك فإن أحداً لا يستطيع أن يزحزحه من مكانه..

وقد جرت العادة أن الرئيس جمال عبد الناصر، أو أنا، عندما نتخذ قراراً فإنه يعلن أولاً. وبعد ذلك يعرض علينا لنوقعه.. إلا فى هذا القرار. فلما اتصلت بسامى شرف أبلغه بنشر هذا القرار.. فقد فوجئت به وقد حمل إلى القرار فى يده وفى منزله لكى أوقعه. فأدهشنى ذلك. ووجدت منه نوعاً من السذاجة والبلاهة.. فقد ظن هؤلاء السذج أن هذا يخيفنى. وأن التوقيع على القرار مستند ضدى..

ووقعت قرار إعفاء على صبرى من منصبه كمساعد لرئيس الجمهورية لشئون الطيران.. وهو منصب اخترعه له جمال عبد الناصر.. أما منصبه كعضو فى اللجنة التنفيذية العليا فقد أخرجه منه جمال عبد الناصر بعد فضيحة السجاجيد والشنط التى أتى بها من موسكو.. أما عضويته للجنة المركزية فهذا من شأن اللجنة نفسها.. وكانت فرحة الشعب عظيمة

جداً لإخراج على صبرى. فقد استطاع على صبرى أن يجعل كل مواطن فى مصر يكرهه ويمقته ويحتقره عندما نشر سلسلة يومية من المقالات ملأت قلوب الناس بالحقد بعضهم على بعض، وملأت قلوبهم أيضاً بالاحتقار له.. فلما سقط، كان لسقوطه ارتياح عظيم.. وكانت هذه الفرصة أصدق استفتاء شعبى فورى على صحة هذا القرار. وكنت أعلم بحسى السياسى وحاستى السادسة أن على صبرى هذا لا شىء، لا قمة له ولا قاعدة.. وجاءت الأيام تؤكد صدق فراستى..

١١ مايو

لقد تحدد هذا اليوم للقاء الجيوش على جبهة قناة السويس..

وقابلت القوات وجلست إليها، وتحدثت..

نصف الليل ١١ مايو

كنت فى البيت. جاءنى من يقول لى أن ضابط بوليس يريد مقابلتك فوراً لأمر هام.

لأن لديه معلومات خطيرة ولابد أن أعرفها..

قبل ذلك وابتداء من إعلان إقالة على صبرى تجىء لى خطابات عليها توقيعات من أصحابها ينقلون فيها تعليمات الاتحاد الاشتراكى ضد رئيس الجمهورية. فقد نشط الجهاز الطليعى التابع لشعراوى جمعة.. وكنت أكتب على هذه الخطابات: ترسل إلى شعراوى أمين التنظيم وإلى عبد المحسن أبو النور أمين الاتحاد الاشتراكى: للتحقيق والإفادة.. والناس حولى فى ذهول من موقفى هذا. والذى لم يعرفه الذين حولى هو أننى حريص على أن يعتقد مركز القوة الذى أصبح الأول وزعيمه شعراوى جمعة أننى لا أعرف وأننى حسن النية. وأننى كما يتصورون، رجل ساذج غائب عن حقيقة ما يجرى حولى.. ولم يكن يعرف هؤلاء أيضا أننى أعطيت تعليمات إلى مكتبى بأن يتصلوا بكل واحد من أصحاب هذه الخطابات ويقولوا له: لا تخف.. وإذا أصابك شىء فأبلغنا!

وكان الغرض من ذلك أن أعرف من الذى سوف يعاقب هؤلاء، لكى أعرف بداية الخط.. وبداية مراكز القوى. ومدى سرعة الفعل ورد الفعل عندهم. ولم يحدث أن عاقبوا أحدا، وهذا مالم أكن أتوقعه.. ولكن استنتجت فيما بعد، أنهم ليسوا على هذه الدرجة من التنظيم والتماسك والمتابعة.. أما ضابط البوليس هذا فيعمل فى جهاز الرقابة فى وزارة الداخلية. وقد

جاءنى عن طريق أحد أزواج إخواتى البنات. ومعه شريط مسجل يريدنى أن أسمعه. وفجأة اكتشفت أنه لا يوجد فى بيتى جهاز تسجيل. فأرسلت إلى بيت أحد أقربائى. وجاء جهاز التسجيل. وضعت الشريط. وحتى هذه اللحظة لم أكن قد رأيت هذا الضابط. لقد كان الشريط تسجيلاً من شعراوى جمعة وزير الداخلية لأعضاء اللجنة المركزية. وفى هذا التسجيل حوار بين اثنين.. أحدهما محكوم عليه بالسجن ٢٥ سنة مؤبد فى قضية مراكز القوى هو فريد عبد الكريم أمين الجيزة والآخر هو محمود السعدنى صحفى من روز اليوسف. وفى هذا التسجيل يحكى فريد عبد الكريم عضو اللجنة المركزية عن جلسة اللجنة المركزية التى كانت صراعا مكشوفا مع مراكز القوى، انتصرت فيه. وفى التسجيل أيضا وصف للطريقة التى تحدث بها على صبرى وكيف إنه كان رائعاً.

ومن تسجيلاتهم أيضا لعلى صبرى تحس أن على صبرى أيضا كان يعتقد أننى إنسان سانج لا عندى فكرة ولا لدى قدرة على النظر إلى الأمور ولا على حساب أى شىء من حولى.. كأننى غائب عن الدنيا. وقد أخطأ فى ذلك، هو وكثيرون ولا يزالون.

وكان يقول لهم: لا تخافوا منه.. إنه لن يستطيع عمل أى شىء.. ولكى يحمسهم ويثيرهم: أسرعوا حتى لا يصفيكم واحدا واحدا.

وكان شعراوى يقول: سيادتك طول بالك..

وسامى شرف يقول: عندنا تكتيك..

ولكن شيئا فى الحديث قد استوقفنى وأثارنى. ومددت يدى أوقف التسجيل.

لقد سمعت الصحفى يقول: هه.. وعملتم حساب الإذاعة.

قال له: لا.. كانت محاصرة لكيلا يتحدث السادات للشعب.

وأوقفت التسجيل ونظرت إلى سكرتيرى الذى نظر إلى زوجتى. وكأنهما يريدان أن يقولا شيئا.. ثم أمسكا عنه..

إن حصار الإذاعة معناه: انقلاب. فماذا جرى؟ ..

لقد كنت أنتظر المعركة.. أن تنفتح المعركة وأدخلها.. وأنا فى مثل هذه المواقف: عندما أقرر دخول معركة فإننى أدخلها إما غالبا وإما مغلوبا.. ولابد أن أذهب فيها إلى نهايتها.. لا شىء يخيفنى. ولا شىء يشد أزرى وينفخ فى صورتى، ويملؤنى حيوية مثل مواقف التحدى. جربت هذا فى شبابى وعرفت أشكالا وألوانا من العذاب والصبر عليها. ولا أزال قادراً على ذلك.. حتى الموت!

إذن أنا كنت أنتظر المعركة. لقد جاءت المعركة إلى بيتى فى نصف الليل.. مسجلة واضحة تماما. فما الذى أنتظره الآن..

سألت سكرتيرى استوضحه بعد أن أوقفت التسجيل عن (حصار الإذاعة) والحركات التى صدرت منه.

فقال لى: يا أفندم السيد حسنين هيكل جاءنى هنا يوم اجتماع اللجنة المركزية وقال لى: إن محرراً من الأهرام كان موجودا فى مبنى الاتحاد الاشتراكى فى مكتب معين. وسمع أن الإذاعة محاصرة فذهب إليها على قدميه.. ثم هرول إلى الأهرام وروى لهيكل ذلك فنزل بسيارته ورأى المنظر بنفسه وجاء بسرعة وطلب منى أن أنقل إليك ذلك وطلبت إليه أن ينقل إليك ذلك بنفسه.. فرفض. وقلت له: لا أستطيع.

وسألته: ولماذا لم تقل ذلك فى نفس اللحظة؟

قال: يا أفندم إن جميع الشكاوى التى تجىء إلينا من الشعب بتعليمات الاتحاد الاشتراكى والتنظيم فإنك تؤشر عليها وتعيدها إلى شعراوى جمعة وعبد المحسن أبو النور للتحقيق.. فأنا لا أعرف ما الذى أفعله.. وأدرت جهاز التسجيل وتلمست لهم العذر. ثم طلبت إلى سكرتيرى أن يعطى الشريط للضابط لكى يعيده إلى مكانه فى وزارة الداخلية.. وطلبت من سكرتيرى أن يحضر هذا الضابط لكى أراه ثم رأيت الضابط طه ذكى وقلت: لقد عرفتك الآن، فلا تخف. وأنت آمن تماما على نفسك.. اذهب وأعد هذا الشريط إلى مكانه.

الساعة ١٠ صباح ١٢ مايو

ذهبت إلى انشاص كما كان متفقا. وقابلت قوات الطيران وقوات الدفاع الجوى. كان يجلس إلى يمينى وزير الحربية محمد فوزى وإلى يسارى قائد الطيران حسنى مبارك. الذى اخترته من سنة لمنصبه هذا.. والذى هو الآن نائب رئيس الجمهورية.. ولم يغب عن بالى لحظة، وأنا أتحدث إلى قوات الطيران عن الوضع السياسى..

لقد أحسست أنهم يسبقوننى.. وتحركوا أسرع منى. وأننى يجب أن أفكر بسرعة.. صحيح إننى أرى أوضح منهم.. وأعصابى أهدأ. وتفكيرى مركز. وطريقى أوضح.. ولكن أحسست أنهم فتحوا المعركة، فى الوقت الذى كنت أستعد فيه لذلك.. وكنت أتحدث إلى القوات الجوية من صميم قلبى. أما عقلى فكان يعمل بسرعة فى مكان آخر.. وفى اجتماعى معهم قلت عبارتى المشهورة: والله من يخرج على إرادة الشعب فسأفرمه.. وكان من المفروض أن أزور مديرية التحرير فى اليوم التالى. ولكنى أحسست بإرهاق شديد بعد هاتين الزيارتين.

ولما عدت من انشاص كان يوم ١٢ مايو سنة ١٩٧١. قد أوصلني محمد فوزى وزير الحربية كالمعتاد إلى بيتي. وقبل أن أنزل من السيارة قلت لسكرتيرى فوزى عبد الحافظ:

يا فوزى قل لهم يؤجلوا رحلة مديرية التحرير.. فأنا متعب.

وكان مقررا لهذه الزيارة يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٧١. وكنت حريصا على أن يسمع محمد فوزى ذلك.. فهو واحد من مراكز القوى.. والذى لم أكن أعرفه هو أنهم قد أعدوا لهذه الزيارة منذ أسابيع.. وأعدوا شيئا هاما: اغتيالى! وحدث ما توقعته. فقد ذهب محمد فوزى إلى بعض مراكز القوى وأخبرهم أننى أجلت زيارة مديرية التحرير. وانزعجوا لذلك فقد توهموا أننى عرفت ما أعدوه لى هناك. ثم عادوا فرفضوا فكرة أن أدرى بأى شىء. أو أن أعرف كل ما دبروه لى.

كل هذا لم أعرفه إلا من تسجيلاتهم هم!

يوم ١٣ مايو وهو اليوم الكبير

طلبت من إحدى بناتى وهى فى طريقها إلى المدرسة الساعة السابعة صباحا أن تمر على محمد حسنين هيكل وأن تخبره أن يجىء فورا. ولم أشأ أن أطلبه بالتليفون، لأن التليفونات مراقبة.. ولما حضر بعد ذلك سألته عن حصار الإذاعة وكيف عرف بها من المحرر الذى اعتقله جمال عبد الناصر وسجنه هو وزوجته وأفرجت أنا عنه.. فأكد الواقعة.

ومن المضحك أنه، أى محمد حسنين هيكل، كتب مقالا يوم ١٣ مايو ١٩٧١ يفسر هذا الاستدعاء على أنه استنجاد به!!

طلبت من فوزى عبد الحافظ سكرتيرى الخاص: يا فوزى

- أفندم.

اتصل بممدوح سالم محافظ الإسكندرية واطلب منه أن يركب سيارته ويجىء فوراً إلى هنا دون أن يتوقف فى الطريق أو يمر بأحد..

الساعة ٨ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

جاءنى ممدوح سالم.

قلت له: يا ممدوح أنا أثق فيك تماما.

قال: شكرا تحت أمرك.

قلت: يا ممدوح أنا سأقيل اليوم شعراوى جمعة وقصة شعراوى ومراكز القوى سأرويها لك كاملة.

ورويتها له كلها وبالتفصيل.

وقلت له: يا ممدوح أنا واثق منك. وأريد أن أعرف منك هل تريد أن تدخل معى معركة ضدهم. إذا كنت ترى ذلك فاقعد معى. مع العلم بأننى لا أعرف حتى الآن نتيجة هذه المعركة بوضوح. لا أضمن أى شيء. ولكن أنا طبعى إذا دخلت المعركة لا أخرج منها إلا عند النهاية: نهايتى أو نهاية خصمى!

وبعد أن شرحت له الصورة كاملة قلت: أنا عرضت عليك الوضع. إذا أحببت فادخل معى على بركة الله، وإلا فارجع إلى الأسكندرية فى مكانك. وأنا أشكرك. وأنت آمن تماما. وموضع ثقتى الكاملة.

قال: يا أفندم. أنا معك تماما. والدنيا كلها معك. ولا تفكر فى أى شىء. إنهم بلا قوة. أنا أعرفهم جيدا.. إنهم ورق وقش!

قلت له: تحلف اليمين يا ممدوح وزيرا للداخلية.

قال: أنا جاهز يا أفندم.

قلت: الساعة الرابعة تكون جاهزا لحلف اليمين أمامى وبحضور رئيس الوزراء..

وطلبت سامى شرف، وجاءنى: قلت له: يا سامى.

– نعم.

اذهب لشعراوى جمعة.

وأنا أعرف أن شعراوى جمعة وسامى شرف شىء واحد. وأن شعراوى هو الزعيم وليس على صبرى. فهو الذى يريد أن يستأثر بكل شىء وحده. وأعلم أن على صبرى مكروه من الناس ١٠٠٪ .

ثم قلت لسامى: قل لشعراوى جمعة باعتبارك وزيرا لشئون الرياسة.. يا شعراوى مع السلامة وأكرم لك أن تجعلها استقالة بدلا من أن تكون إقالة.

فانهار سامى شرف. وسامى شرف يعلم جيدا أنه إنسان محدود. وأنه لا يستطيع أن يكون فى المقدمة. وإنما لابد أن يعيش فى ظل أحد.. أى أن يكون الرجل الثانى.. أو الظل لأى أحد.

وامتقع وجه سامى شرف وتساقط أمامى تماما.

وقلت: يا سامى.

- نعم.

القرار صدر.

وأخذ سامى شرف يبكى ويقول: يا أفندم. القرار.. يا أفندم انتظر..

إنـه صورة من الغباء.. ولكن اكتشفت أنهم أيضا. وربما مرة واحدة فقط هى التى اثبتوا فيها أنهم على درجة من الذكاء.

هذه المرة عندما طلبت من سكرتيرى فوزى عبد الحافظ استدعاء ممدوح سالم. وكانت تليفوناتى مراقبة. فاجتمعوا، ووصلوا فى استنتاجهم إلى احتمال أن يجىء ممدوح سالم وزيرا للداخلية. وكان ذلك الاستنتاج صحيحا. ولكنهم مع ذلك استبعدوا أن أقدر على خلع شعراوى جمعة.. فقد حالفهم الذكاء فى الاستنتاج، وخانهم الذكاء عندما شككوا فى قدرتى على الإحاطة بشعراوى أو غيره..

وأحسست أن حاستى لم تخنى.. وأنا أعتمد على حاستى السادسة فى الحكم على الرجال. وتصورت أن سامى شرف هذا قد انهار لأنه مرتبط بشعراوى جمعة.. ولكنه من الممكن أن يرتبط بأى إنسان آخر.. لأنه لا يستطيع أن يقف على رجليه.. فهو كالأطفال التى لم يتم فطامها بعد. وقد صدق حدسى. فلما سألنى: وأنا أين أذهب؟

قلت: كما أنت!

وبعد أن ضمن مركزه ذهب إلى شعراوى جمعة. واجتمعوا فى القوات المسلحة فى مكتب محمد فوزى وزير الحربية. وحدث فى هذا الاجتماع شىء واحد أذكره لمحمد فوزى من أجل ذلك. يوم أن انتصرنا فى معركة أكتوبر ٧٣ كان أول واحد أخرجته وكرمته.. وهو الآن يعمل فى التجارة حراً آمنا على نفسه وأهله ورغده ورزقه..

فى ذلك الاجتماع يوم ١٣ مايو وبعد إقالة شعراوى جمعة زعيمهم كان سعد زايد وزير الإسكان.. وهو واحد من الذين عينهم جمال عبد الناصر فى الوزارة فى مارس سنة ١٩٧٠ مع مركز القوة محمد حسنين هيكل على سبيل إفهام هيكل أنه لا يعدو أن يكون واحداً كهؤلاء ليس أكثر وكان هذا مما أغضب هيكل كما حكى لى بعد ذلك.

في هذا الاجتماع طالب سعد زايد بعدد من الدبابات.. ولو عشر دبابات لمواجهة رئيس الجمهورية وإثارة الناس عليه..

وهنا قال له فوزى: لا أستطيع أن أقنع جنديا واحدا بأن ينقل دبابة واحدة من مواجهة اسرائيل إلى مواجهة الشعب المصرى.. لو أصدرت أمرا بذلك فلن يطاوعنى أحد.. وكل ما أستطيعه هو شيء واحد: أقدم استقالتى!

وقد ذكرت له هذا الموقف فلم يدخل السجن، وإنما دخل مستشفى المعادى حتى أفرج عنه.. وقد استدعيته بعد ذلك إلى برج العرب. ووبخته على ما فعل..

الساعة ٨,٣٠ مساء يوم ١٢ مايو ١٩٧١

كنت جالساً في بلكونة البيت والدنيا حارة جدا.. استمعت إلى نشرة الأخبار وجاء فيها خبر استقالة شعراوى جمعة وقبولى لها. وهذا هو المهم. وبعد النشرة جاءنى مركز القوة الأول فى حياة عبد الناصر، والثانى بعده إلى هذا التاريخ محمد حسنين هيكل فى حالة نفسية فظيعة. وعرفت فيما بعد أنه قبل أن ينزل من بيته أوصى زوجته على أولاده.. ولابد أنه جاء إلى بيتى يحتمى فى هذا البيت.. وبعد نشرة الثامنة والنصف مساء يتصل بى سامى شرف ويبكى ويقول: قرار شعراوى جمعة يا افندم صعب.. صعب!.

قلت له: يا سامى أنت تعبان خذ لك أجازة يومين أو ثلاثة..

الساعة ١٠,٥٧ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

جاءنى أشرف مروان مساعد سامى شرف ومعه خطاب موجه لى باستقالات.

الساعة ١٠,٥٩ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

خطاب استقالات جماعية تضم لبيب شقير رئيس مجلس الشعب، ضياء الدين داود عضو اللجنة التنفيذية العليا وسامى شرف وزير شئون رياسة الجمهورية.. سعد زايد وزير الإسكان، محمد فائق وزير الإعلام.. ومحمد فوزى وزير الحربية.. ووزيرا آخر واثنين آخرين من الاتحاد الاشتراكى على صلة بالاتحاد السوفيتى.

وقلت لأشرف مروان: يا أشرف لماذا لم ترسل هذه الأسماء مبكرا؟ ..

لكى أقبلها وأذيعها فورا..

قال: هم يقصدون أن تذاع فى نشـرة السـاعة الحادية عشـرة ومحمد فائق وزير الإعلام ينتظر ذلك فى مكتبه ثم ينصرف مباشرة إلى بيته لأن استقالته معهم. وانتظرت إلى أن أذيعت النشرة بعد دقيقة واحدة، وفى صدرها الاستقالات..

وطلبت سكرتيرى وقلت له: يذاع فى آخر النشرة أننى قد قبلت هذه الاستقالات..

وطلبت ممدوح سالم بعد أن كان قد حلف اليمين. وتسلم عمله. وطلبت منه أن يتحفظ على الذين اسـتقالوا، وأن يتحفظ على على صبرى من باب الاحتياط أيضا. وطلبت إليه أن يبلغنى ذلك بعد خمس دقائق..

الساعة ١١,٥ مساء

اتصل بى ممدوح سالم يقول: يا افندم. تحفظت عليهم جميعا..

أسجل هنا تعليقا مضحكا لتوفيق الحكيم.. سمعته بعد ذلك.. وهو رجل لطيف.. وهو يأخذ الأمور من الجانب السـاخر قال: دول جماعة سذج. كان أسهل شىء يقومون به هو الاستيلاء على الإذاعة.. ويعلنون أنهم عزلوا السادات.. وعلى ما يرجع السادات.. ويتأكد أنهم لم يفعلوا هذا تكون قد مضت ساعتان أو ثلاث.. وبذلك تتحقق لهم البلبلة المطلوبة.. ولكنهم سذج!

والـذى يؤكد سـذاجتهم أنهم جمعوا أنفسـهم فى ورقة واحدة.. فى سـلة واحدة.. ومن البلاهة ألا أنتهز هذه الفرصة وأتخلص منهم جميعا فى نشرة إخبارية واحدة..

وهنـا لابـد أن أذكر حادثة معروفة فـى الريف.. فهم يقولـون أن الثعلب عندما يمتلىء جسـمه بالبراغيث فإنه يحار فى التخلص منهـا.. فيتقلب على الأرض.. ويهرش ظهره فى الحائط وفى الأشـجار وفى الأحجار.. وأحيانا ينزل الماء.. ولكن البراغيث لا تموت.. ولذلك هدته الغريزة إلى حيلة ذكية.. وهى أن يظل يجرى فى الحقول يجمع بقايا القطن..

ثم يضع هذا القطن فى فمه.. وينزل إلى ماء الترعة بذيله وببطء شديد.. وكلما اقترب الماء مـن الذيل.. فإن البراغيث تصل إلى مكان آخر. ولا يـزال الثعلب ينزل فى الماء حتى يتغطى كل جسـمه ولا يبقى إلا قطعة القطن فى فمه.. فتصعد كل البراغيث والحشـرات الأخرى إلى قطعة القطن.. وهنا يلقى بها الثعلب فى الماء.. وقد تجمع كل براغيث مراكز القوى فى قطعة القطن، ولم يكن صعبا إلقاؤهم فى الماء بعد ذلك!

ثـم نزلت إلى صالون البيت.. وكنت قد طلبت اسـتدعاء وزير الخارجية محمود رياض.. ولاحظت أن محمود رياض يدافع عن زميله محمد فوزى.

وشرحت له القصة، فلم يكن يدرى عنها شيئا..

ووجدت اللواء أحمد إسماعيل أيضا..

أهلا يا أحمد.

– أهلا يا افندم.

وكان أحمد إسماعيل فى المعاش منذ سنتين. لقد فصلوه بصورة شائنة من رياسة الأركان بعد أن عين فيها بعد استشهاد عبد المنعم رياض. وأحمد اسماعيل هو المؤهل رقم ٢ بعد عبد المنعم رياض.. باعتراف الجميع فصلوه. وأتوا بدلا منه بمحمد صادق لأنه أحد رجالهم وكان يقدم تقاريره بانتظام لسامى شرف..

وطلبت من أحمد إسماعيل أن يذهب إلى المخابرات العامة مديرا لها..

الساعة ٧ صباح ١٤ مايو ١٩٧١

أيقظونى لأن الرئيس جعفر نميرى فى طريقه إلى القاهرة ليطمئن على الوضع فى مصر. ولم يأت الرئيس نميرى بطائرة خاصة. وإنما بطائرة عادية. وقد نام فى الطائرة.

وظللت أنتظره أمام سلم الطائرة نصف ساعة حتى أيقظوه وارتدى ملابسه.

وكنت مرهقا تماما فقد أويت إلى فراشى متأخرا. وكما هى عادتى لا أتعاطى الحبوب المنومة. ولكنى صحوت فى هذه الساعة المبكرة.

شكرا للرئيس جعفر نميرى جاء يطمئن وملأت قلبه بالطمأنينة على كل شىء..

واتجهنا معا إلى سراى القبة التى نزل بها. وكنت مشغولا بتشكيل الوزارة الجديدة وعندما التقطت لنا الصور بعد حلف اليمين. كان الرئيس نميرى واقفا بيننا..

وعند الظهيرة بلغنى خبرا غريبا.

لقد اجتمع مجلس الأمة وعزل رئيسه لبيب شقير و ١٦ عضوا آخرين. وقد أسعدنى هذا الخبر وأذهلنى. وكان مفاجأة تامة. ولم يكن فى حسابى مطلقا. فقد كان من الضرورى موافقة ثلثى أعضاء المجلس على هذا القرار وأشهد أن مصطفى كامل مراد، الذى هو اليوم زعيم المعارضة، كان وراء هذا الموقف كله.

وكانت سعادتى لا حد لها...

وانتهت أكذوبة «الانهيار الدستورى» الذى أرادته مراكز القوى: بأن يستقيل هذا العدد من الوزراء.. ويستقيل رئيس مجلس الشعب.. ويستقيل آخرون.. فلا يبقى إلا رئيس

الجمهورية وحده.. وظن هؤلاء السذج أن الدنيا قد انتهت.. وأن هذا هو الطوفان الذى ليس بعده شىء.. ولم يكن طوفانا وإنما كان زوبعة فى فنجان كما وصفتها. ثم تلاشت.. فقد كان الناس متوهمين أن لهم وزنا وحجما أكبر بكثير جدا من حقيقتهم..

وقد تساءل كثير من المؤرخين وآخرهم هذا المؤلف الإيطالى الذى أصدر كتابا بعنوان «تحديات السادات» كيف استطعت أن أواجه كل هذه القوى وحدى.. كيف كان هذا التحدى!

وعلى أى أساس كان عندى هذا اليقين بأننى سوف أتغلب عليهم فى النهاية؟

لا أدعى العبقرية الفذة.. ولكن أقول صادقا أنى لم أكن وحدى.. فقد كان الله معى. وإيمانى بالله وبأنه لا يصح إلا الصحيح هو سندى الأكبر.. وأن الشعب بإحساسه الصادق هو الذى جعلنى أستند إليه.. ثم إن عندى حاسة سادسة.. لا أعرف كيف أسميها، هى التى كانت تلهمنى حساب تقدير الرجال.. أو كانت توضح لى حقيقة العلاقات المعقدة والصور المهزوزة لأناس كثيرين فى كل مكان.. ثم إن الأيام والشارع السياسى الذى أمضيت فيه ٢٩ عاما. قد علمنى الصبر. وعلمنى مع الصبر الاحتمال. ومع الإيمان أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.. ثم إننى تفاديت ما نصحنى به كونفوشيوس ألا أزاحم أحدا.. وألا أدوس الناس والقيم والمبادئ فى هذا الزحام.. والحمد لله الذى نصرنى وأعزنى بمصر، وأعزها بى أيضا.

١٥ مايو ١٩٧١

اتصل بى اللواء أحمد اسماعيل قائلا: تمام يا افندم

أيوه يا أحمد..

– عندى شنطة بها كل التسجيلات.. القصة كاملة.. وكان فى نيتهم أن يحرقوها. وجاءت الشنطة التى تضم قصة ١٥ مايو.. قصة مراكز القوى كلها.. من صنعهم هم.. أما أنا فلم أسجل لأحد.. ولن أسمح لأحد.. اللهم إلا أجهزة الأمن ولاعتبارات من أجل الصالح العام بأمر من القاضى، وهو ما يحدث من وقتها إلى اليوم..

وأدركت مرة أخرى أننى كنت على حق عندما طلبت التحفظ على على صبرى أيضا.

وفى هذا اليوم قال الشعب كلمته.. أروع كلام.. إنها نفس جموع ٩ و ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧..

جموع متدفقة سعيدة فقد عانت وتعذبت وتمزقت.. وقد وعدتها بأنه لا سلطة لأحد على أحد إلا بالقانون.. لا إرهاب ولا تعذيب ولا إذلال.. وانفتح الطريق إلى أكتوبر ٧٣ وما بعده من إنجازات من أجل مصر وكرامة الإنسان فى مصر وفى البلاد العربية..

١ – على ماهر ومعه الرئيس الراحل محمد نجيب وعبد الناصر والسادات .

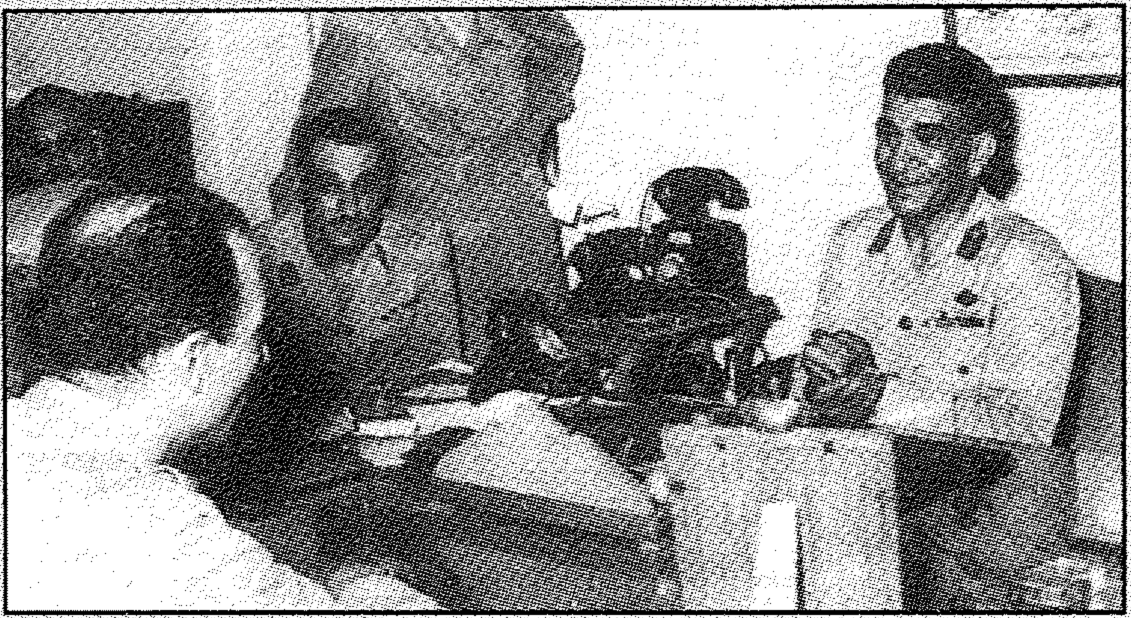

٢ – محمد نجيب وعبد الناصر .

٣ – على صبرى يقف بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر فى السنوات الأولى للثورة .

٤ - صـورة للبكباشى جمـال عبد الناصـر وهـو ينزل من السيارة فى طريقه إلى مقر مجلس الثورة .

٥ - الرئيـس السـادات والليثى ناصف .

٦ - الرئيس السادات مع الرئيـس السـودانى جعفر نميرى .

٧ –أشـرف مروان كاتم أسـرار السـادات ومبعوثه الخاص في كل مكان .

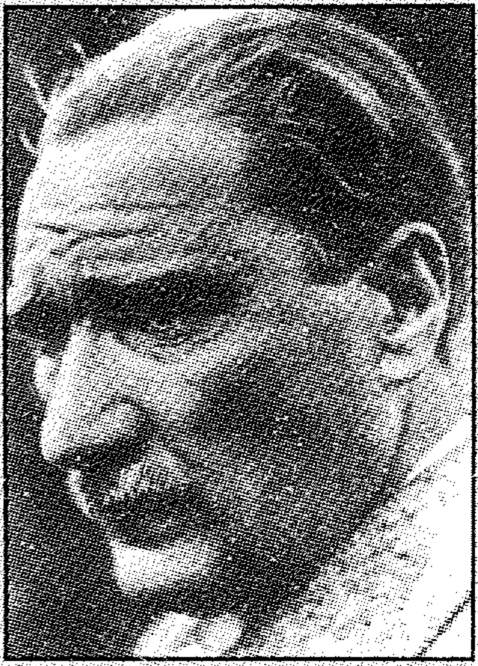

٨ – مصـطفى كمــال أتاتورك .

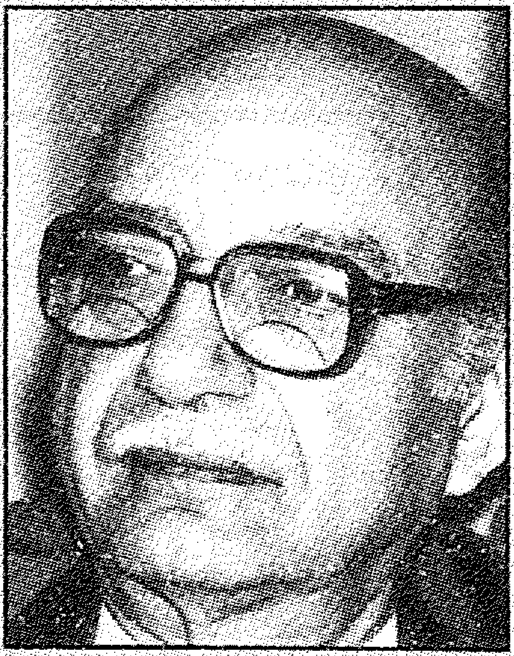

١٠ – د. محمود رياض

٩ – الفريق محمد فوزى

مصر من ملكية إلى جمهورية

- كيف جعل فاروق الصغير يده مسجدا للزعماء؟
- أربع وزارات أسقطها الملك على رأس الشعب.
- الرغبة السامية والإرادة السنية والتوجيهات الملكية كانت جواز المرور لما تريده الحاشية.
- وزير الأوقاف ونقيب الأشراف يصدران صكوك غفران للملك.

من عادتي أن أقوم بتبسيط الأشياء لنفسي، لكي أراها أوضح، فإذا رأيتها، كنت قادرا على أن أنقلها للآخرين..

أي إنه شرط أساسي لكي أكون مفهوما عند الآخرين، أن أكون فاهما لأية مشكلة..

وكما ذكرت كثيرا، فقد تنبهت للأمور السياسية في سن مبكرة. فقد كنت أقرأ عن السياسية وأنا ما أزال في العاشرة ثم اشتغلت بالسياسة وأنا في العشرين، وبعد ذلك ساهمت في السياسة وصنعها .. وفي جميع هذه المراحل كنت أقرأ وأجمع المعلومات وأحشد نفسي .. ولقد أعجبني تعبير جميل يطلقه الباحثون العرب القدماء على أنفسهم، فلا يكاد الواحد منهم يتهيأ لتأليف كتاب أو بحث موضوع حتى يقول عن نفسه: لقد احتشد له.. أي حشد كل قواته، كأنه جيش مقدم على معركة.. وأرى أن هذا التعبير دقيق. وأعتقد أنني - لا شعوريا - كنت أحتشد لشيء ما لا أعرفه.. المهم أنني كنت حريصا على أن أفهم ما يجري حولي من الأحداث التي أقرأ عنها، وأرى صداها في الشارع وفي المقاهي والبيوت والمدارس والمظاهرات، وأعتقد أنه جاء وقت كنت أثور وأهتف وتمتد يدي إلى الطوب في الشوارع، دون أن أعرف بوضوح ما هذا الذي أثور ضده.. وكل ما أعرفه في شبابي المبكر جدا أنني ضد الانجليز .. وبعد ذلك كنت ضد من يقف مع الانجليز أو يقف معه الانجليز ..أي من يريد أن يكون للانجليز وجود في مصر..

ودون أن أدخل نفسي في تفاصيل كثيرة، وكلها معروفة عند كل المواطنين في مثل سني، فقد كانت الصورة التي بسطتها لنفسي واضحة: أن قوة الجذب في مصر وفي العشرينات والثلاثينات، من بعد ثورة ١٩١٩ مباشرة، كان الانجليز. هم القوة الحقيقية. وهم مصدر القوة والشرعية في مصر. فالذي يريد أن يحكم فلابد أن يقترب منهم. فإذا فعل فقد دانت له الدنيا واتسعت له مقاعد الحكم، وأمام الانجليز، وضدهم أحيانا، كان العرش.. وليس العرش والانجليز على وفاق دائما.. وإذا اتفق الطرفان فضد الشعب .. وضد أن يكون للشعب صوت وصدى. وأن تكون للشعب أية مطالب أو تكون له حقوق..

وبين الانجليز والملك توجد الأحزاب.. حزب الأغلبية وأحزاب الأقلية .. أما الأغلبية فكانت تقف ضد الملك أحيانا، وأكثر الأحيان مع الانجليز. ولذلك لم يكن الملك يجد أمامه إلا أحزاب الأقلية. فلأن هذه الأحزاب تفتقر إلى القوة الجماهيرية، فإن الملك يسندها ويعطيها ما ليس لها وما لا تستحق..

واستمرارا فى تبسيط الأمور أيضا. كان الانجليز فى الثلاثينات - بصفة خاصة- قد أعلنوا سياسة الحياد.. أى سياسة التفرج على ما يجرى فى مصر دون أن يتدخلوا فى شىء.. والذى يجرى فى مصر هو: الأحزاب تقف مع الملك أو ضده .. أو تقف مع الانجليز أو ضدهم.. وكانت بريطانيا تعلن أنها لا تتدخل فى شئون مصر: لا فى شئون الأحزاب ولا سلطات الملك ولا تفرض على الشعب المصرى ما لا يريد.. والحقيقة غير ذلك تماما. فالانجليز هم أصحاب سياسة: فرق تسد .. أى التفريق بين الناس أو بين الطبقات أو بين السلطات، وتمزيق الشعب، ليصبحوا قادرين بعد ذلك على أن يسودوا.. وقد سادوا عشرات السنين، وفى بلاد كثيرة.. ووزير خارجية بريطانيا صمويل هور، هو الذى قال عن موقفه من التغيرات الدستورية فى مصر: إنهم استشارونا فنصحناهم! وكان يدفع عن نفسه وعن حكومته أنه يتدخل فى تعديل الدستور المصرى.

وهو لم يزد على تكرار السياسة البريطانية المزعومة. والحقيقة أنهم لم يستشيروا بريطانيا فنصحتهم، وإنما هم أخبروها فأمرتهم..

وأذكر أن الناس فى مصر قد أعجبتهم وبهرتهم فكرة الحياد.. أو الحيدة البريطانية. فلما اكتشفوا بعد ذلك أن بريطانيا لم تكن قط على الحياد، أزعجهم ذلك. وصدموا.. وهذه الصدمة - فى ذاتها - تدل على طيبة الناس وسذاجتهم. إذ كيف يخطر لهم ببال أن بريطانيا لا تكذب. بل إن شاعرنا حافظ إبراهيم قد نظم عددا كبيرا من القصائد. وكلها ذات معنى واحد: أن بريطانيا خدعتنا فكذبت علينا. وأنها ليست محايدة مطلقا:

كشفنا عن نواياكم فلستم   وقد برح الخفاء محايدينا
ضربتم حول قادتنا نطاقا   من النيران يعيى الدارعينا

ثم يتوعدهم حافظ إبراهيم بمصير نابليون ونفيه فى جزيرة سانت هيلانة، ويكرر المعنى مع هذه الدهشة البريئة من أنهم يكذبون:

أمحايد أم حائد   عن منهج الحق المبين
نازلت شعبا أعزل   بمدرعين مدججين

وأمنت عقبى الظـالمين ولبئس عقبى الظـالمين
إنـا بجبـار السمـــاء وبالعقــيدة نســتعين
أأمنتمو صرف الزمـان، وفتكــه بالغاشــمين
كـم من قــوى هـــدّه كيد الضعيف المستكين
أو لـم تـروا ما ذاقـــه بالأمس ذياك السجين
في «سنت هيلين» قضى من دوخ الدنيـا سـنين
مـن كـان فـى غـاراته فى الكون منقطع القرين
أمسى ألانتـه الخطوب، وكـــان صلبا لا يلـين
أو تتقـون مصــــيره أم لســتمو بالمتقــين!

وحافظ إبراهيم نســى أن الانجليز هم الذين نفوا نابليون .. ولكنه - بكل طيبة وبراءة - يدعو عليهم بأن يلقوا نفس المصير!

ويقول أيضا:

قل للمحايد هــل شهدت دماءنا تجرى وهل بعد الدماء سلام
سفكـت مـودتنا لكـم وبدا لنـا أن الحياد على الخصـام لثام
لم يبق فينا مـن يمنـى نفســه بـودادكـم فـودادكم أحلام

وهــو فى هذا البيت الأخير بعيد عن حقيقة ما يجرى فى مصر.. فهناك كثيرون يحلمون لا بمـودة بريطانيـا وإنمـا بما دون ذلـك بكثير جدا.. فقـد كان موظف صغير فى السـفارة البريطانية هو أمل السياسـيين فى مصر.. موظف صغير اسـمه مستر سمارت يعمل سكرتيرا شرقيا. وكان لقاء مستر سمارت هذا منتهى أمل الزعماء السياسيين فى مصر. وكان يكفى جدا أن يبتســم لأحد أما إذا دعاه إلى الإفطار، فقد انفتحت له أبواب السـماء .. أما إذا لمس كتفه أو ذراعه ونشـرت الصحف ذلك فسوف يتلقى البرقيات وتنهال عليه التليفونات هكذا كانت تقول الصحف فى ذلك الوقت وفى ٩٩٪ من مثل هذه الحوادث السـعيدة، يكون مصير الزعيم السياسى الذى نال الرضاء السامى أن يجىء وزيرا أو رئيسا للوزراء..

وكان الملـك فؤاد وفاروق بعد ذلك، يلتقى بالوزراء أو برئيس الوزراء إذا كلفه بتشـكيل الوزارة وهذا طبيعى. ولكن ليس من الضرورى أن يلتقى السـفير البريطانى بواحد من هؤلاء. إنه كان يكتفى بأن يلقاهم السكرتير!

وأخيرا يقول حافظ إبراهيم أيضا، وتنشر له الصحف ذلك، بما يدل على أنه يعبر عن الرأى العام فى ذلك الوقت:

لقد طال «الحياد» ولم تكفوا　　أما أرضاكم ثمن الحياد؟
أخذتم كل ما تبغون منا　　فما هذا التحكم فى العباد
بلونا شدة منكم ولينا　　فكان كلاهما ذر الرماد
وسالمتم وعاديتم زمانا　　فلم يغن المسالم والمعادى
فليس وراءكم غير التجنى　　وليس أمامنا غير الجهاد

أما لعنات حافظ إبراهيم لاسماعيل صدقى الذى عطل الدستور وعادى الشعب واستكان للملك فهى شىء طريف يبعث على الضحك، يقول حافظ إبراهيم:

ودعا عليك الله فى محرابه　　الشيخ والقسيس والحاخام!

وكان حافظ إبراهيم شاعرا طريفا ووطنيا مخلصا. ولكن إدراكه السياسى لم يتعد هذا الفهم البسيط لمبادئ السياسة فى زمانه، وللسياسة البريطانية بصفة خاصة.. أو لم يكن يعرف الخريطة السياسية فى ذلك الوقت ولكنه كان محبوبا وكان حديث الناس جميعا إذا أنشد قصيدة أو إذا نشرتها له الصحف. وكنت، مثل كثيرين،أحفظ شعره وأدونه، ولكن كنت أرى فيه نوعا من السلبية.. لأنه فقط يستنكر ويتفرج. ومثل حافظ ابراهيم كثيرون أيضا.

وفى هذه الظروف السياسية فى مصر نجد أن للفرد دورا هاما.. أما الشعب فيجىء دوره متأخرا بضع خطوات. وكان الفرد فى ذلك الوقت هو الملك أو هو السفير البريطانى أو الزعيم السياسى. ولذلك فمن الضرورى أن ألتفت كثيرا وطويلا إلى هؤلاء الأفراد الذين أثروا فى الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر.

فمن المؤكد أن السفير البريطانى سير مايلز لا مبسون - الذى أصبح بعد ذلك لورد كليرن - كان له دور خطير وشرير فى تسيير السياسة المصرية، وقد كافأه تشرشل على ذلك بأن منحه لقب لورد.. هذا الرجل جاء من الصين. وقد أفلح فى أن يعقد معاهدة بين الصين وبريطانيا. وكان نموذجا كاملا لرجل الإمبراطورية، أو الرجل الاستعمارى بمعنى الكلمة.. وقد عاونه فى صياغة السياسة المصرية الخارجية والداخلية والمعاهدات رجل اسمه مستر بكيت .. هذا الرجل كان أستاذا فى صياغة المعاهدات ووضع التراكيب التى يحار العقل فى تفسيرها .. فإذا حار استغرق وقتا طويلا فى شرحها وتفسيرها وتبريرها وتعديلها.. أى إن

مثـل هذه الصياغة قادرة على أن تجعل المفاوضات بشـأنها مسـتمرة. وهذا يضمن للانجليز وجودا أطول وأعرض وأعمق..

وقد جاء السـفير البريطانى لامبسـون هذا فى أوائل سنة ١٩٣٤.. وكانت مصر قد شبعت غضبا وسـخطا على إسـماعيل صدقى، وعلى دستور سـنة ١٩٣٠ الذى نسف دستور ١٩٢٣.. ولذلك فإن إعادة دسـتور سـنة ١٩٢٣ بعد ذلـك كان يعتبر خطوة صاعدة فى طريق السـيادة الوطنية فى مصر..

ولكـى يتدارك الانجليز الموقف فـى مصر، بعد الارتباك الذى أحدثه إسـماعيل صدقى واللعب بالدستور، أرسلوا مايلز لامبسون ليعد لهم المعاهدة الجديدة التى تربط البلد بهم.. وفـى ذلك الوقت كان حزب الوفد هو حزب الأغلبية. وكان فى عنفوانه ولم يكن قد بدأ ينزل عنـد رغبات الانجليز أو الملك، أو يتدحرج فـى التنازلات إلى غير نهاية.. فقد كان الوفد، ككل الأحـزاب الأخرى، يرى أن الانجليز هم مصدر السـلطات.. ولم يدر ببال أحد فى ذلك الوقـت أن الانجليـز يجب أن يخرجوا. وأن الملك يجب أن يذهب. وإنما الصيغة السياسـية التى كان يجتهد الجميع فى شرحها هى كيف يحققون نوعا من التوازن بين العرش والسفارة البريطانيـة.. ولكن التخلـص من الاثنين لم يكن قضيـة واردة أو مطروحة فى ذلك الوقت.. وكان الانجليز يعرفون ذلك بوضوح، ولكن تحاربهم السياسـية الطويلة قد جعلتهم يفكرون فى انتقاء رجالهم الواحد بعد الآخر..

ولابـد أن المعاهـدة التـى عقدتها بريطانيا مـع مصر ومع وزارة الأغلبية سـوف تدخل تاريخنا السياسى من أبواب متعددة: فقد وصفها مصطفى النحاس باشا بأنها معاهدة الشرف والاستقلال. وقد شغل المؤرخون أنفسهم كثيرا بمدلولات الاستقلال والشرف فى ذلك الوقت.. ولا بد أنهم قد انتهوا إلى أن الشرف نسبى كالاستقلال تماما.

ولكن الغلطة فى مثل هذا التفسير أن الشرف ليس نسبيا كالاستقلال تماما. لأن الاستقلال معناه حرية الإرادة فى اتخاذ القرار دون تدخل من أية قوة أجنبية. وأن هذا أيضا هو استقلال الإرادة.. ولكن أية قراءة جديدة لهذه المعاهدة تؤكد أن الإنجليز باقون. صحيح أن فيها نصا يبعث على الضحك. هذا النص يطلق حرية بريطانيا فى أن تحلق فى أجوائنا بطائراتها دفاعا عن مصر والقناة والطرق الامبراطورية. لما كانت مصر وبريطانيا دولتين مستقلتين وكل منها ند للأخرى فمن حق الطائرات المصرية أن تحلق فى الأجواء البريطانية أيضا! وغلطة أخرى

خطيرة فى مفهوم الاستقلال، هى أن بريطانيا هى التى تعطينا الاستقلال أى إن الاستقلال منحة من بريطانيا، كما كان الدستور منحة من الملك! فكل شىء يجىء من فوق.. الانجليز يعطوننا الاستقلال. أى يتفضلون مشكورين بأن يعطونا الاستقلال. وهذا فضل يضاف إلى فضل آخر هو أنهم كانوا يحكموننا ويتحكمون فينا!

وكان المعنى العام للسياسة البريطانية فى ذلك الوقت: أنه يكفينا شرفا وفخرا أن الانجليز يحتلون أرضنا ويفكرون لنا. ولكن الاستقلال لا يعطيه أحد لنا. وإنما نحن الذين نأخذه بالقوة وبالدم. ومن أجل ذلك كان الفوز به شرفا، بل أكثر من الشرف، لأن الاستقلال حياة، وكانت مثل هذه الحياة هى الكرامة المرادفة للحياة وكانت هذه المعانى هى التى تملأ رءوسنا ونحن صغار.. ونحن شباب. ونحن رجال.. ومن أجلها هانت، وسوف تهون حياتنا!

ولما حصل مصطفى النحاس على معاهدة الشرف رجع إلى مصر وأعلن فى البرلمان هذا الانتصار العظيم، وهاجم بعنف كل الذين هاجموه.

وهنا يجب أن يلتفت السياسيون والمؤرخون أيضا إلى الأفراد الذين أثروا فى مسار الأحداث فى ذلك الوقت. ولابد أن يجىء الملك أحمد فؤاد فى مقدمة هؤلاء. فكما ذكرت، كان واضحا لنا ونحن شبان صغار ونحن رجال بعد ذلك: أن قطبى السياسة فى مصر هما السفير البريطانى والملك..

وقد وضعت بذور لمشاكل كثيرة فى تاريخ مصر فى عهد الملك فؤاد. الذى حكم حوالى ١٩ عاما من سنة ١٩١٧ حتى سنة ١٩٣٦. وهو الابن السادس للخديوى إسماعيل.

وقد تعلم الملك فؤاد فى مدارس إيطاليا والتحق بكلياتها العسكرية. ودخل الجيش الايطالى فى سلاح المدفعية، ثم كان لابد أن يسافر إلى تركيا ليكمل تعليمه أو تربيته السياسية والعسكرية هناك أيضا. ومن الطبيعى أن يعرف السلطان ورجال البلاط. وقدمه أبوه الخديوى اسماعيل إلى السلطان عبد الحميد. وقد عينه السلطان سفيرا له فى النمسا وبقى هناك سنتين.

ولما عزل أبوه الخديوى إسماعيل، وجاء الخديوى عباس الثانى ليجلس على عرش مصر سنة ١٨٩٢ استدعاه وعينه كبيرا للياوران فالملك فؤاد - إذن - رجل على قدر كبير من الثقافة والتجربة السياسية.

وقد تزوج مرتين، فى المرة الأولى تزوج الأميرة شيوكار إبراهيم، ابنة الأمير إبراهيم أحد أحفاد إبراهيم باشا الكبير.. وطلقها بعد أن اعتدى عليه أخوها.. وكان مجنونا وأدخلوه مستشفى الأمراض العقلية فى انجلترا وظل به ٢٧ عاما ثم هرب منه بعد ذلك.

ولما ولى عرش مصر تزوج نازلى بنت عبد الرحيم باشا صبرى، وفى سنة ١٩٢٠ أنجبت له فاروق والأميرات فوزية وفايزة وفائقة وفتحية. وعلى الرغم من المزايا الشخصية الفكرية للملك فؤاد، فقد كانت أمامه تحديات كثيرة من الانجليز والباشوات والحاشية والأحزاب والشعب.. ثم إنه أولا وأخيرا حاكم يريد أن يكون مطلقا. وهناك كثيرون قد شجعوه على ذلك.. أما كيف تولى فؤاد الحكم فقد كان ذلك فى نفس اليوم الذى توفى فيه السلطان حسين كامل فى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧. فقد أبلغه الانجليز: «أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السامى، على أن يكون لورثتكم من بعدكم حسب النظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وبين عظمتكم».

أى إن الحكومة البريطانية، وبمنتهى البساطة والوضوح، هى مصدر ولاية العرش.

وضاق الناس بتعيين الإنجليز للسلطان فؤاد على عرش مصر..

ولم يكن فؤاد يجد حرجا فى أن يعينه الانجليز. المهم أن يتربع أو ينام على العرش، وابنه من بعده. ولذلك فقد أعلن فى أول خطاب بعث به إلى حسين رشدى رئيس الوزراء: «إنه بسبب وفاة سلفنا وأخينا المحبوب المغفور له السلطان حسين الأول .. قد تولينا بالاتفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة المصرية، على أن يكون هذا العرش من بعدنا لورثتنا طبقا للنظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بيننا وبين حكومة صاحب الجلالة البريطانية..»

وظل السلطان فؤاد، أو الملك فؤاد بعد ذلك، مخلصا للدولة التى عينته والتى حمته - وإن لم يكن مخلصا تماما فقد كان ضعيفا أمامها. وكان إذا وقف إلى جانب الشعب فلكى يضايق الحكومة البريطانية .. ولكن عندما كان يقف مع الشعب فى صياغته للدستور أو عودته، كان يقصد مسايرة التيار العام، وأن يستعين بأحد أو بأى قوة أخرى ضد الانجليز.. ولكنه - كالانجليز تماما لا يريد للشعب أن يقف على قدميه.. أما سنوات حكم فؤاد فقد شهدت كل المحاولات الشعبية والجهاد من أجل الاستقلال ومن أجل الشرعية الوطنية والدستورية.. وفى نفس الوقت ظهرت كل أساليب القمع والردع.. وكل محاولات القضاء على الروح المصرية الثورية..

وإذا كانت فى هذه المرحلة «جواهر» كثيرة، ففيها «وحل» كثير أيضا .. وفيها هوان من حزب الأغلبية وباشواته أيضا وفيها رقاب انكسرت على يدى الجالس على العرش.. وفيها ظهور تقوست أمام موظف صغير فى السفارة البريطانية.. وفيها أكبر غلطة فى فهم

الاستقلال.. وأبشع غلطة فى أن يتصور الناس أن السفارة البريطانية بديهة باقية .. وأن الجالس على العرش مهما كان فاسقا فهو كالسفارة البريطانية باق إلى الأبد.. وقد انتقل الصراع على أيام فؤاد لينمو ويزدهر فى عصر ابنه الطفل الملك فاروق الذى ولى العرش ولم يتم السابعة عشرة من عمره.. وإذا كان فؤاد صاحب ثقافة وتجربة، فقد جاء ولده بلا ثقافة ولا تجربة.. وإذا كان فؤاد فى حجم العرش الذى جلس عليه، فقد جاء فاروق أصغر من العرش.. ولأنه صغير، ولأن الذين حوله كبار أشرار، فقد تعقد والتوى حتى سقط وسقطوا!

وكأن الخريطة السياسية لمصر فى ذلك الوقت مكتوبة «بحبر سرى» إذا تعرض للبخار الساخن، فإنه يبدو واضحا بارزا.. وكأن البخار الساخن هو موجات السخط والغضب فى عهد الملك فاروق.. كأن الملك فاروق نفسه عدسة مكبرة وضعت على عينى التاريخ فرأى كل حروف الثورة المصرية بارزة.. كأن الملك فاروق «ميكروفون» وضع على قلب مصر، فأصبحت دقاته ضربات مدوية، وأصبح مسار الدم فى عروقها هديرا صاخبا.. وإذا كان لأحد من فضل فى أن ترى مصر عيوبها وتصرخ، وإذا كان لأحد الفضل فى أن يوسع الهوة بين السراى والشعب ويعمقها ويسقط فيها: فالفضل يرجع إلى فاروق طفلا وشابا ورجلا.. فقد كان مثل كرة الجليد التى تتدحرج، فإنها تزداد حجما كلما أمعنت فى الانطلاق..

إن فيلسوفا فرنسيا اسمه كارتو عندما أراد أن يفسر كيف تتلاقى الصدف والمفارقات فى التاريخ وصفها بأنها كرة من القطن المبلل بالبنزين اصطدمت بنار مشتعلة.. فاشتعلت الكرة أيضا..

أى إنه يريد أن يقول: إن هناك - دائما - مسارين للأحداث.. وفجأة يلتقى هذا المسار وذلك المسار.. تماما كما تلتقى الكرة المبللة بالبنزين بنار ساكنة فى مكانها.. ولكن عيب هذا الرأى أنه يجرد التاريخ - وهو سجل كفاح الشعوب من أجل المزيد من حريته - من الإرادة الإنسانية.. ويجعل التاريخ سلسلة من المصادفات.. تماما كما يتصادف أن يمر الإنسان فوق لغم.. فيموت.. ولكن المصادفة كثيرا ما حدثت فى التاريخ وغيرت مصائر الناس. غير أنه من الممكن أن تقع المصادفة لأحد، فلا يدرى كيف يستفيد منها، أو كيف يدفعها مرة أخرى فتعمل لحسابه - وفى حياتى مصادفات ومفارقات كثيرة. وسوف أجملها فيما بعد.. فهذا الشاب فاروق قد حاول أبوه أن يجعله شيئا مختلفا. فهو لم يبعث به إلى تركيا ليتعلم

العسكرية. أو السياسة فيها.. ولم يبعث به إلى ألمانيا أو حتى أمريكا. فلم يكن ذلك فى استطاعة أبيه فى ظل الإنجليز الذين عينوه على مصر- أى عينوه على مصر وفى نفس الوقت وظفوه عندهم ليعمل لحسابهم - ولم ينس الملك فؤاد هذا الفضل العظيم للإنجليز، عليه وعلى ذريته من بعده.

ولم يضع الإنجليز وقتا. فقد التقطوا هذا الابن الصغير وأركبوه مدمرة حربية وسافر بها إلى بريطانيا. وفى هذه المدمرة الكثير من المعانى.. فهى سفينة مسلحة.. أى إنها هى الدرع الأمينة التى تحميه.. وقد خلق له الإنجليز أعداء كثيرين وخلق هو أيضا لنفسه، ليتكفل الإنجليز بحمايته من أعدائه ومن نفسه. ولم يكن فاروق هو المقصود بالحماية، وإنما المصالح البريطانية.. ولكن الملك فؤاد كان حريصا منذ البداية على أن يتعلم ابنه أحسن وأفضل. ولذلك وافق على دراسته فى بريطانيا. وأرسل معه رجلين.. أصبح الرجلان ثلاثة وأربعة وخمسة وعشرين بعد ذلك.. كلهم تعاونوا على تربيته أسوأ تربية، وعلى تكوينه أحط تكوين.. إلا رجلا واحدا هو عزيز على المصرى.. وهو الأب الروحى لنا، نحن الشباب الثائر، وعزيز على المصرى شخصية مصرية فذة. وشخصية عربية قومية. وقد درس العسكرية فى تركيا. وحارب مع مصطفى كمال أتاتورك وله سجل سياسى عظيم، يفخر به ونفخر نحن أيضا. ويوم يشار إلى عزيز على المصرى فسوف يقال: كان زعيما عربيا قوميا. وهو فى نفس الوقت مصرى وطنى صميم. وإلى جانب مفاخره أيضا أنه حكم عليه بالإعدام.

ولم أكن أعرف عزيز على المصرى هذا. ولكننى أعجبت به. ورأيت فيه صورة من صور البطولة والشجاعة والصدق. وتمنيت أن أعرفه. وعرضت فكرتى هذه على الشيخ حسن البنا. ورتب لى موعدا معه. فكان لابد أن أذهب لعيادة دكتور إبراهيم حسن، وكيل الإخوان المسلمين.. وكانت له عيادة على ناصية شارعى المبتديان والسيدة زينب. وذهبت. ودخلت. وقابلت المرض. ودفعت له ثمن التذكرة، وأدخلنى للطبيب، ولما ذكرت له اسمى فتح لى بابا ودخلت لأجد نفسى أمام عزيز على المصرى!

ولم أر د. ابراهيم حسن بعد ذلك. فبعد قيام الثورة ذهبت إلى جامع عمر مكرم لأعزى فى صديق. ووجدت وجوها غير التى توقعت أن أراها. ولما سألت عن الفقيد قيل لى إنه د. إبراهيم حسن. وكانت مفاجأة مؤلمة. فقد كان الرجل طبيبا مخلصا، ولو عرفت أنه هو الذى مات لذهبت إلى أهله وعزيتهم فى بيتهم قبل أن أجىء إلى جامع عمر مكرم.. وكان الغرض من سفر عزيز على المصرى مع الأمير الطفل فاروق أن يعلمه «الانضباط» العسكرى والأخلاقى. أى

الغرض هو وضعه في قوالب نظيفة. لأنه ليس طفلا عاديا، وإنما هو طفل ملك. وعيوبه تعود بالوبال على مصر، ومزاياه ترجع بالخير عليها وعلى شعبها..

وحاول عزيز على المصرى كثيرا جدا. وقد سمعت منه أعجب القصص وأغربها عن مجاهداته مع فاروق وأحمد حسنين. وفجأة وجد عزيز على المصرى أن الملك فؤاد قد استدعاه إلى مصر. ولابد أن يكون سبب ذلك شكوى فاروق، وأحمد حسنين من الجدية والصرامة التى يعامل بها الملك الصغير. فكثيرا ما ذهب عزيز على المصرى ليوقظ الأمير صباحا، فيجده مخمورا. وعندما يسأله: متى عاد سموكم ليلة أمس؟

فيقول له: الساعة الثالثة صباحا.

- ولكن كيف؟

- هكذا!

- وسوف تفعل كذلك كل يوم.

- أعتقد ذلك..

ويكون مثل هذا الرد دليلا على أنه لا معنى لأن يتشبث عزيز على المصرى بالخطة التى وضعها ليجعل من الطفل الناعم شابا صلبا، ليكون بعد ذلك ملكا رجلا قويما!

وإذا نظر عزيز على المصرى إلى أحمد حسنين يعتب عليه كيف سمح لهذا الأمير الصغير بأن ينهار ويسقط فى الوحل هكذا. يكون رد أحمد حسنين: إنها إرادته السامية.

ويسأله: ولكن أين واجبك!

ويكون الرد: واجبى أن أطيعه!

ومعنى ذلك أن واجب عزيز على المصرى أن يطيع الأمير أيضا.. ولم يكن عزيز المصرى، بتاريخه وشخصيته وكرامته، ليقبل مثل هذا الهوان. فلما استدعاه الملك فؤاد، أجابه دون أن يدرى إلى أعز أمانيه.. ولابد أن يكون فاروق وأحمد حسنين والإنجليز هم الذين شكوا من عزيز المصرى ومن تشدده وتسلطه على الأمير الصغير! ولذلك فأحمد حسنين هو أول من أفسد هذا الغلام حين أطاعه واستسلم له. وراح يحميه ويدافع عن حماقاته... فقد اشترى أحمد حسنين رضا الملك بأى ثمن. ولو كان ذلك الثمن أن يتحول من مدرس إلى مرشد فى كباريهات وسهرات لندن الحمراء. وبعد أحمد حسنين جاء كثيرون أضافوا لمسات عنيفة إلى شخصية

فاروق ولذلك فعندما جاء فاروق إلى مصر بعد وفاة والده كان على استعداد تام لأن يكون فاسدا منحلا. وكل ما ينقصه أن يجد التشجيع من أحد. والذين شجعوه قالوا: أنت الملك أنت إرادة الشعب. أنت إرادة الله. الكلمة الأولى والأخيرة لك. ولا صوت يعلو على صوتك. وأنت العالم الأول والعامل الأول. والمؤمن الأول..

ولم يكن فاروق فى حاجة إلى مجهود كبير من أحد ليكون كل هذه الصفات ثم يفرضها على الناس ويصدقها قبل أن يصدقوها. ولم يصدقها إلا الطامعون فى السلطة.. وما أكثرهم بين الأغلبية وبين الأقلية أيضا!

وعند وفاة والده الملك فؤاد استدعى فاروق على عجل ليكون ملكا على مصر. جاء صغيرا دون السابعة عشرة من عمره. ولكن مصر كلها انتظرت مقدم الشاب اللطيف الوسيم المحبوب - والذى أحبه الناس، أحبوا أن يكون أملهم فى حياة أحسن. أى أن يكون أحسن من والده الذى طغى وبغى.

وانتظرت مصر بكل شعبها مقدم الملك فى الأسكندرية. ووقف الناس على جميع محطات السكك الحديدية بين الأسكندرية والقاهرة. وكان استقباله شعبيا ومن القلب.

فقد أحس الناس بفطرتهم، أنه من الممكن أن يكون أبوه فاسدا، وألا يكون هو كذلك.. أو يكون تعويضا عن فساد والده وأنه ليس من العدل أن يأخذوه بجريرة أبيه. وكان الناس مخلصين ومتسامحين فى ذلك. فقد ضاقوا بأبيه، ولا معنى لأن يضيقوا بابنه الذى لم يفعل شيئا.. بعد.. وتمنى الناس أن يفعل الابن أفضل وأصدق وأعم وأشمل مما فعله أبوه ضد الشعب!

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أجهزة السياسة الجهنمية تتحرك بسرعة.. فقد وجد على ماهر رئيس الوزراء فى ذلك الوقت أن فاروقا لم يبلغ سن الرشد، بالحساب الميلادى. فأصدر الفتوى بحساب ميلاده بالسنة الهجرية. وبالحساب الهجرى نودى به ملكا على مصر.

وهذه الفتوى قد سجلت نصرا لعلى ماهر على غريمه أحمد حسنين.. فاقترب خطوة من الملك الشاب.

وقد رأى الناس العقلاء فى ذلك الوقت أنه مادام قد ظهر حول الملك أناس من مثل على ماهر، وأنهم استطاعوا بهذه السرعة تطويع التاريخ الهجرى لصالح العرش، فليست هذه إلا باكورة التزوير والتضليل من أجل مزيد من السلطة. وكان استنتاج هؤلاء الحكماء فى موضعه لولا أن الفرحة التى غمرت الناس بتولى فاروق الحكم، قد غطت على صوت الحكماء.

وبسرعة تزوج الملك فاروق. ورأى الشعب فى هذا الزواج المبكر دليلا على الاستقامة. فلم يكن أيسر من أن يمضى الملك فى اللهو والعبث، وسوف يجد المنافقون ألف مبرر لذلك.. كأن يقال إنه صغير، وكأن يقال إنه يحب أن يجرب، وأن يقال: إن الملك مشغول بالسياسة عن الحياة العائلية.. كثير جدا الذى يمكن أن يقال، وقد قيل أيضا.

ولكن الشعب وجد فى رغبة الملك فى الزواج مبكرا، ثم فى الزواج، دليلا على أنه ليس كوالده. والشعب يحب أن يكون حاكمه مستقيما. لأن الحاكم يجب أن يكون قدوة. لأنه ليس منطقيا أن يطلب الحاكم من الشعب أن يستقيم وهو معوج، وأن يطلب إليهم الإيمان وهو ملحد، وأن يطلب إليهم التمسك بالروابط العائلية وهو منحل.

ولذلك كان زواج فاروق من فريدة ذو الفقار فاتحة خير.

ولكن عرف بعض الناس أنهم كانوا يغلبون الأمل على الحقيقة. وأنهم يحلمون.. فلم يختلف فاروق عن والده. بل كان أسوأ وأحط. وكانت زوجته فريدة تعرف ذلك وتدارى عليه. حرصا على كرامتها، وعليه هو، ولكن لم تفلح هى ولا غيرها فى إخفاء عورات فاروق، فقد عرف الناس كل شىء، وفى نفس الوقت لم يكن هو يعبأ كثيرا بأن يعرف الناس.

وعرف الناس أنه يمكن إضافة صفات أخرى إلى الملك فاروق الذى كان العامل الأول والعالم الأول: اللص الأول والمرتشى الأول والمزور الأول.. ثم المهرب الأول لثروته ومجوهراته قبل قيام الثورة! .

وسرقات فاروق - أو جنون السرقة عند فاروق - سلسلة طويلة من الفضائح الشائنة. التى تصيبه شخصيا وتصيب حاشيته والحكومات المتوالية التى ساعدته على السرقة وعلى التزوير وعلى النهب وعلى الاختلاس دون أن يجرؤ كثيرون أن يقولوا لجلالته: لأ.. عندك!

بل إن زعيما عندما وقف أمام الملك وكان الملك يرتعش مما تخيل أن سيطلبه الزعيم: إذا به يفاجأ بأن الزعيم يطلب شيئا غاليا. ويقول الملك خائفا: اطلب، قال الزعيم: أن أقبل يدك!

وكان ذلك صفعة لمصر كلها.. وهوانا ما بعده هوان. ولكن هوان الشعب فى ذلك الوقت، كان نياشين على صدور الزعماء!

وبسبب هذا الضعف فى تكوين الملك فاروق النفسى والثقافى، بدا قزما أمام عتاة السياسة الحزبية فى مصر. وبسبب هذا الضعف، كان الملك يحاول أن يبدو أقوى وأكبر.. ومن هنا علموه لعبة تغيير الوزارات وإهانة الرؤساء.. وجمع السلطة كلها فى يده.. دستورية وغير

دستورية.. وإصراره على أن يعطى هو الألقاب والنياشين ويعين ويفصل كبار الموظفين فى الدولة وفى الشركات وتجاهله لسلطات الوزراء ورؤساء الوزارات والاتصال برؤساء الدول دون علم من الحكومة أو البرلمان.. ولا يقبل نقدا من أحد..

واخترع له الوفديون صفة سرية وهمية سحرية اسمها «التوجيهات الملكية» .. فلا يكاد أحد يسأل عن شىء حتى يقولوا له: إنها توجيهات جلالة الملك.. إنها نصيحته السامية.. إنها رغبته العالية.. إنها وإنه جل جلاله- استغفر الله العظيم!

وضاعت وتاهت وضلت العدالة والشرعية بين الرغبات السامية والتهديدات الملكية وخنوع الزعماء، وخشوع كبار الموظفين والوزراء.. وتوالت الوزارات ونصائح الملك أيضا. والتف حول الملك كثيرون.. أصدقاء لياليه الحمراء، وترابيزات القمار الخضراء فى مصر وفى الخارج.. وأصبحت كل مصائر مصر، يرسمها الملك أو الذين حوله بعد منتصف الليل..

وكان عرش مصر مثل كرة القطن المبللة بالبنزين التى تنطلق بسرعة هائلة نحو النار.. وكلما أمعنت الكرة فى الانطلاق اكتسبت سرعة أكبر.

حتى كان ذلك اليوم الشهير ٤ فبراير ١٩٤٢ بعد أن استقالت وزارة حسين سرى باشا. وجاءت الدبابات وحاصرت قصر عابدين. وطلب السفير لورد كيلرن تعيين مصطفى النحاس رئيسا للوزراء. وجاءت وزارة الوفد على الدبابات البريطانية تهدد العرش وتدوس الكرامة المصرية.

ولكن أفلح الملك فى أن يسترضى الإنجليز وأن يسامحوه لمجرد أنه تردد لحظة أو لحظتين فى قبول الإنذار البريطانى. فجعلوه جنرالا فى الجيش البريطانى- وقد أسعده ذلك كثيرا!

ولما حاول الملك أن يتخلص من وزارة الوفد هذه بعد سنتين طويلتين عريضتين، وأن يأتى بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى، رئيسا للوزراء سارعت بريطانيا بالرفض. وكان الرفض من كلمتين جاءتا فى إحدى البرقيات. كل كلمة منهما كالسيف الذى قطع ما تبقى للملك وللحكومة من كرامة. فقد كانت الكلمتان: لا تغير..

وكأن هاتين الكلمتين دبابتان بريطانيتان جديدتان أضيفتا إلى بقية الدبابات التى ركبها الوفد إلى الحكم! وقد سحقت العزة المصرية والكرامة الوطنية فجعلت العرش مقعدا خشبيا لبواب على قصر عابدين، وليس لملك أحبه الناس بمنتهى الصدق والإخلاص!

وكان يوم ٤ فبراير لطمة للجيش المصرى الذى تلقى الكثير من أشكال الهوان فى عهد فؤاد قبل ذلك.. وفى عهد فاروق: كان فاروق هو الذى يعين القائد العام ويختار وزير الحربية

وغيره من الرتب الأخرى. لأنه أدرك أن الجيش يجب أن يكون قاعدته التى يعتمد عليها فى مواجهة الأحزاب أو السفارة البريطانية. ولكنه لم يفعل من أجل الاحتفاظ بهذه القاعدة، شيئا كريما.

وكانت القوات المسلحة تعلم، ثم زاد علمها يقينا بعد ذلك، بأنه لا فرق بين الزعماء، فهم جميعا يركعون ويسجدون لأى إنسان يجلس على العرش.. أو لأى إنسان يجلس على مقعد السكرتير الشرقى فى السفارة البريطانية.. أى لأى مصدر من مصادر السلطة فى مصر!

وتوالت بعد ذلك وزارات وقامت مناقشات ومعارك، ووضحت وقاحة وسفالات الملك وحاشيته.. فهم يتاجرون فى التحف ويسرقونها له، وهم يتجرون فى الأسلحة الفاسدة، التى قتلت القوات المصرية فى مواجهة اليهود.. فلم يكن اليهود وحدهم، أعداءنا، وإنما كان بيننا من هم أكثر عداوة من اليهود.. وكان الملك يبيع دماء مصر ويحول ثمنها إلى البنوك الأجنبية.. وهو الذى طلب من حكومة الوفد أن تعطيه مخصصاته لمدة عام مقدما. وحولت له. وهو الذى باع يختا للدولة، ثم خصصه لنفسه.. وهو الذى تقاضى أكثر من مليون جنيه إصلاحا ليخت آخر، ولم يتطلب إصلاحه إلا بضعة ألوف، والباقى استولى عليه..

ومن المؤكد أن فاروق سوف يدخل كتب علم النفس أيضا تحت اسم «كليبتومانيا» أى جنون السرقة.. فقد سرق سيف شاه إيران من قبره.. وسرق خنجر أحد اليمنيين.. وسرق مجوهرات وتحفا من قصوره ووضعها فى قصوره الأخرى.. وكانت حاشيته تعرف فيه هذا الداء، فكانت تضع المسروقات أمامه.. ليخفيها فى جيبه. إنه مريض ولا شك فى ذلك. وليس هذا إلا مرضا واحدا. ولكن من أخطر أمراضه: إحساسه أنه صغير، فأراد أن يكون كبيرا. ومن مظاهر ذلك أن يتعالى على كل الناس وعلى الزعماء بصفة خاصة..

وفى كتب التاريخ، والصحف المصرية والأجنبية الكثير جدا. الذى لا حاجة بى لأن أسرده هنا حتى لا أبعد عن «سياق» الأحداث وعن المعنى الذى وجدته مناسبا لهذه الأوراق: «وهو التأصيل بلا تفاصيل» .

ويكفى أن أتابع بعينى تعدد الوزارات وأشكالها فى نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات فى حكومات سعدية وائتلافية ومحايدة وبعد ذلك حكومة وفدية جاءت بأغلبية. وكانت هذه الأغلبية غريبة. وتنطبق عليها العبارة الشهيرة: لا حبا فى «على» ولكن كراهية فى «معاوية» .. فقد اكتسح الوفديون فى الانتخابات، فقد ضاق الناس بما حدث فى عهد

النقراشـى وإبراهيم عبد الهادى وحسين سرى وضاقوا بالملك والإنجليز.. وتعلقوا بأوهام من بينها أن الوفد يستطيع أن يحقق لهم شـيئا.. وقد لاحظ المؤرخون أن الانتخابات الوفدية لم تحقق نجاحا فى المدن وإنما فى الريف حيث تعاونت عناصر كثيرة على الضغط وتحقيق نوع من النجاح المشبوه.. ولما لم تحقق هذه الوزارة الوفدية شيئا توالت صدمات الناس.. وتحولت أصابعهم إلى مشـاعل من النار تحرق كل شـىء بعد ذلك فى مصر. حتى اكتملت النيران كلها فى حوادث القناة وبعد ذلك فى القاهرة..

وكانـت أيامـا تحرك فيها التاريخ علـى وهج النار وليس على ضـوء النور.. حتى كانت ثورتنا التى كان أكثرها نورا، وأقلها نارا.. ولكن عندما أتذكر ماذا حدث لى بسبب أن حكومة حسـين سرى باشا المحايدة قد أشرفت على الانتخابات.. وأشرفت على الإعادة، فإننى أجد شيئا عجيبا.. بل لا غرابة ولا عجب فإنه من صنع الله وتدبيره!

وفـى حريق القاهـرة حاولت حكومة الوفـد أن تتخذ موقفا بطوليـا، اجتمعت. وأعلنت الأحـكام العرفية. وكان هدفها أن تجمع الدخان كلـه فى زجاجة. وأن تضع الزجاجة تحت قدمـى الملك فاروق. لتؤكد لـه أنها هى التى ألغت المعاهدة. وهى التى دفعت الشـعب إلى الغضب وأنها هى التى أخمدت الغضب. وبعد ذلك فليتقدم الملك مشكورا بمنحها ما تستحقه من مكافأة «سنية» – وهذه صفة المنح التى يتفضل «الملك مشكورا» بخلعها على الشعب!

وأقال الملك وزارة الوفد، بدلا من أن تسـتقيل هى.. وسـجل عليها التقصير فى الخطاب الذى بعث به إلى مصطفى النحاس باشا الذى عينه حاكما عسكريا قبل ذلك بساعات!

وكنـا نحن الضباط الأحرار قد اشـترينا السـلاح من رفح وأعطينـاه للفدائيين ليقاتلوا به الانجليز. ولكن موقف الوفد والحكومات المتوالية كان مخزيا حقا. بل إن للوفد أخطاء كثيرة ليـس أقلها أن يصدر وزير داخلية الوفد فى ذلـك الوقت أمرا إلى البوليس أن يقفوا فى وجه الانجليـز أو يوقفوا الانجليز. وكانت نكتة مبكية حقا: رجال البوليس يسـتخدمون بنادق الرش، أى بنادق الخفراء فى الريف، يواجهون بها مدافع الانجليز ٢٥ رطلا، وهى أحسـن المدافع فى ذلك الوقت. وكانت مذبحة لرجال البوليس!

وبسـقوط وزارة الوفد التى بقيت فى الحكم سنتين، تدخل مصر فى مهزلة متجددة. ففى حوالى ٢٠٠ يوم تتفرج مصر على أربع وزارات. لا يعرف أحد كيف جاءت ولا كيف راحت.. وإنما باشـوات تظهر وتختفى.. وكأننا فى مسـرح العرائس. أناس يظهرون، ولأسباب غير

معروفة يختفون، ولكن لا يغيب عن عيون السياسيين والمؤرخين أن الأصابع التى تحرك هذه العرائس كان الملك وحده..

إن الملك يتسلى - كما يقول التعبير الفرنسى المشهور. ولو كان الملك يتسلى بالباشوات فى جلساته الخاصة، كما كان يفعل، لهان الأمر، ولأصبحت التغييرات الوزارية لهوا وعبثا ملكيا. ولكن الملك كان يتسلى بالوزراء وبالشعب وكرامة المواطنين، دون أن يسأله أحد ماذا يفعل؟ بل إن الكثير من الزعماء كان ينتظر دوره.

فإذا جاء «فهى حكمة ملكية سامية».. وإذا لم يأت دوره، فهو على استعداد لأن يفعل أى شيء، حتى يجيء.

وكان الملك يعرف ذلك .. يعرف أنه أمام باشوات يتهالكون على الحكم بأى ثمن! وكنت أرى أن الفساد الذى استشرى فى مصر لا يحتاج إلى ثورة واحدة. وإنما إلى ثورات .. فالفساد قد تسلل إلى عظام مصر وإلى نخاعها.. وكنا نحن الضباط الأحرار قد تقاربنا والتقت وجهات نظرنا. وكنا قد حددنا موعد قيام الثورة نوفمبر ١٩٥٥، أى إن أمامنا ثلاث سنوات لا بد أن يشتد فيها عودنا، وتترابط خيوطنا ويقوى نسيجنا. وكل شيء حولنا يؤكد أن الذى اعتزمناه لا مفر منه. ونحن على يقين من ذلك.. فلا الملك يصلح ولا الأحزاب تصلح .. وسواء كان الجالس على العرش فاروقا الأول أم فؤادا الثانى، فقد انتهى كل شيء. ولا بد أن ينتهى. وقد وجدنا ألف سبب معقول للثورة على كل أشكال الفساد الدستورى، والفساد فى غياب الدستور، ولم تعد «التعبيرات» التى يستخدمها زعماء الأقلية وزعماء الأغلبية، تختلف عن بعضها البعض. ففى النهاية نجد أن الجميع عند قدمى الفاروق سواء..! وبدأت لعبة «لوزارات بلا جذور» .. أى الوزارات التى يلقيها الملك من فوق، وليست الوزارات التى يرفعها الشعب من تحت .. وزارات العرش وليست وزارات الشعب. وما دام الملك هو الذى يختار، فكل شيء مرهون برضائه، أولا وأخيراً.

وما دامت القاعدة فى اختيار الوزراء «الرغبة السامية» أو «الإرادة السنية» أو «التوجيهات الملكية» فالأساس هو المزاج الشخصى. وكما أن للملك مزاجا فلرئيس الوزراء مزاج أيضا. فالملك اختار رئيس الوزراء، ورئيس الوزراء اختار الوزراء.. ولا بد أنه قد «استمزج» - كما يقول إخواننا العرب - أى حاول أن يعرف مزاج الملك. واستجاب له.

وجاءت وزارة على ماهر يوم ٢٧ يناير وذهبت يوم أول مارس سنة ١٩٥٢.

وهـى وزارة ملكية. وأعضاؤها معارف أو أصدقاء. وعلى ماهر سياسـى قديم وذكى، وقد عرف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا فى مواجهة الأغلبية الوفدية. ولذلك سارع بترضية الوفد، تجنبا لقوته، وبذلك يكتب لوزارته عمرا طويلا. ففى خطابه إلى الملك أشـار إلى أنه سوف يمشـى على سياسة «سلفه العظيم». أما السـلف العظيم فهو النحاس باشا. وإذا كانت لسلفه العظيم سياسة، فلماذا أقاله الملك؟ وإذا كان سيمشى على سياسته فلماذا جاء؟.

وإنما على ماهر قد بادر يمد يده إلى النحاس وعانقه وقبله .. واستجاب البرلمان إلى هذه المبادرة. ففى استطاعة على ماهر أن يحل البرلمان.. وحتى لا يفعل ذلك بادر الوفد بمعانقة على ماهر وحكومته. وكذلك البرلمان . وكان على ماهر يعتقد أنه سـوف يبقى طويلا، مادام قد كسب رضاء الأغلبية وحزب الأغلبية .

وحاول على ماهر أن يلعب بالوفد، وحاول الوفد أن يلعب به..

ولم تطل هذه اللعبة.. ولم يسترح الملك إلى سياسة التوفيق بين رغباته وبين تربص الوفد بالـوزارة وبالملك، ثم إن الملـك كان قد أدرك حقيقة الوضع. وكان الملك فاروق ذكيا، ولكنه كان مستهترا لا يبالى بأحد أى بشىء. وفى ذلك الوقت اتصل بى د. يوسف رشاد، وهو صديق للملك. وقال: إن الملك قد أعد قائمة بالذين سوف يغادرون مصر معه إلى الخارج. وقد وضع اسمى بين هؤلاء!

وفى ذلك الوقت كانت طائرة الملك تسـافر إلى سويسرا تحمل المجوهرات والذهب. وكل الذى قرر الملك تهريبه إلى الخارج!

إذن لقد أدرك الملك بوضوح، أن النهاية قد دنت، وأنها كما قال تشرشل أثناء الحرب: بداية النهاية! وأنه يلعب على الوقت فقط. واتصلت بجمال عبد الناصر ونقلت إليه ما قاله لى د. يوسـف رشـاد وهو صديقى، هنا اتخذنا قرارا جديدا فبدلا من أن تكون ثورتنا فى نوفمبـر ١٩٥٥ قررنـا أن تكون فى نوفمبر ١٩٥٢، فى نوفمبر بالذات، لأنه الشـهر الذى فيه الملك قد عاد من الإسكندرية ومعه كل الوزراء، وتكون ضربتنا إليهم وقد احتشدوا فى مكان واحد.

وكانـت وزارة علـى ماهر هذه قـد ضمت إليها واحدا من رجال الملـك هو أحمد مرتضى المراغى وزيرا للداخلية وقيل الكثير فى اسـتقالة الوزارة . أو على الأصح إقالة الوزارة. فلم

يكن أحد يستقيل فى ذلك الوقت وإنما يعينه الملك ويزيحه الملك .. لأن هذه الوزارات قد ألقيت من فوق.. أو أسقطت على الشعب من فوق.. فهى ساقطة منذ البداية!

ولكن السبب الحقيقى الذى ينساه الزعماء الأحياء الذى حدث هو أن على ماهر طلب مقابلة السفير البريطانى سير رالف استفنسون فى ذلك الوقت لكى يبحث معه إلغاء المعاهدة.. ولكن السفير رفض المقابلة. وهذه أكبر ضربة من الممكن أن يتلقاها أى زعيم فى مصر. وكان معناها أن رئيس الوزراء غير مرغوب فيه. ولذلك قدم على ماهر استقالته فورا، لأن الطريق إلى الملك لابد أن يمر بالسفارة وليس العكس. ما دامت السفارة قد أقفلت باب الرحمة الملكية قد أقفل فورا. وسقطت وزارة ماهر! وكان على ماهر يأمل أن تبقى طويلا. وكذلك ولا أعرف أين يضع المؤرخون بعض الأحداث التى يخجل الإنسان من ذكرها للتدليل على الهوان القومى الذى لحق الشعب المصرى.

فعندما أبلغ البرلمان بميلاد فؤاد الثانى، كتب محضر الجلسة على جلد الغزال بماء الذهب وأرسله للملك! ولا أعرف - حقا - ما الذى يمكن أن يقوله المؤرخون عن مثل هذا القرار إلا إنه نفاق وامتهان للكرامة الإنسانية. هو أن الأغلبية الشعبية من أجل أن تبقى فى مقاعدها!

وأغرب من ذلك وأعجب أيضا ما فعله وزير الأوقاف حسين الجندى ونقيب الأشراف محمد الببلاوى عندما أعلنا قبل ذلك أن فاروقا من نسل رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وأن والدته الملكة نازلى بالذات هى التى تنحدر من سلالة السيدة فاطمة الزهراء.

وقد جاء هذا القرار بعد أن أصدر الملك فاروق مرسوما بتجريد أمه التى استقرت فى أمريكا من ألقابها ومخصصاتها الملكية.. وبعد الذى فعله فاروق فى أوربا.. بعد هذا كله يصدر هذا القرار كنوع من العفو الشامل عنه.. أو كنوع من صكوك الغفران.. غفران خطايا الملك والملكة! ثم من الذى يصدر صكوك الغفران؟.. وزير الأوقاف وكبير الأشراف. لماذا؟.. من أجل السلطة والحكم.

إنها أقسى وأقصى درجات الهوان! وجاءت وزارة أحمد نجيب الهلالى باشا.

وفيها أحمد مرتضى المراغى رجل الملك وزيرا للداخلية والحربية والبحرية أى إن البوليس والجيش فى يد الملك - أو إن الملك توهم ذلك!

وهذه الوزارة كالسابقة حاولت أن تجعل لها مبررا شرعيا. ولا شرعية إلا بالشعب. فكان لابد أن ترضى حزب الأغلبية. أو ترضى الشعب من وراء هذا الحزب.. أو تحاول

أن تثير الشعب على هذا الحزب.. وكلها محاولات عتيقة لتشغل الشعب بها، لعله يلتف حولها إذا أفلحت في تحقيق شيء يرضيه. وأعلنت ضرورة التطهير وتقويم الفساد العام - مع أن تشكيل هذه الوزارة هو قمة الفساد والإفساد. فهي كالحكومة السابقة، بلا جذور ولا سند دستورى !

وهي كالوزارة السابقة دليل جديد على الملكية المطلقة.. وحكم الفرد! وكان الملك يتدخل في كل شيء. وكان يفصل في أخطر القضايا على مائدة القمار. وهمس الذين حول الملك يقولون إن «النار تقترب من ثوب جلالته». أي إن التطهير الذي أعلنه الهلالي، سوف يقترب من الحاشية الفاسدة للملك.. وأن حريق القاهرة سوف ينتقل إلى حريق في قصر عابدين ولكن الملك لم يهتم كثيراً. فلا مانع عنده من أن يلهو ويلعب..

ومن مظاهر اللهو عند الملك أنه قرر أن يكلف اثنين في وقت واحد بتشكيل الوزارة الجديدة. ومضى كل واحد منهما يختار رجاله.. وكانت نكتة مؤلمة. فقد كلف بهي الدين بركات باشا، وحسين سرى باشا بتشكيل الوزارة.. ثم استقر رأيه ورأى حاشيته على اختيار حسين سرى. وجاءت وزارة حسين سرى يوم ٢ يوليو ومكثت ١٨ يوما. وكانت الوزارة هوانا جديدا لمصر، وأضيف إلى هذا الهوان عار جديد هو أن يكون من رجالها كريم ثابت صديق الملك. وله صفات أخرى يعف قلمي عن ذكرها..

وفي عهد حسين سرى حدثت انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط. وفازت قائمة الضباط الأحرار. وعين محمد نجيب رئيسا للنادى. أما قائمة الملك فقد فشلت تماما وكان أكبر تحد للملك وصفعة له وللذين حوله.

وفي ذلك الوقت تناقشنا فيمن يرأس الضباط الأحرار. وكان علينا أن نختار بين عزيز على المصرى وفؤاد صادق ومحمد نجيب. أما عزيز المصرى فهو أبونا الروحى، ولكن تقدمت به السن فهو غير قادر على الكفاح والتحدى من جديد.. أما فؤاد صادق فلم يلق استحساناً من أحد، ولكن محمد نجيب هو الذى فاز في النهاية فقد كان عبد الحكيم عامر أركان حربه، وهذا هو الذى رجح اختيارنا له..

وكانت انتخابات النادى يوم ١٨ يوليو..

وفي ٢٠ يوليو اتصل أحمد أبو الفتح، وهو صديق جمال عبد الناصر، ولم أكن قد عرفته - وكل ما أعرفه هو أنه رئيس تحرير جريدة المصرى. وقال أحمد أبو الفتوح لجمال

عبد الناصر: إن مرسوم تشكيل الوزارة الجديدة يعد الآن.. وإن حسين سرى عامر سوف يجيء وزيرا للحربية.

وكان ذلك خبرا مفزعا. فهذا الضابط حسين سرى عامر كان يعرف على الأقل سبعة من الضباط الأحرار التسعة. وهذا معناه أنه إذا جاء وزيرا فسوف يقضي علينا تماما. وفى ذلك إعدام لنا جميعا. ولذلك تقرر قتل حسين سرى عامر الرجل الذى قال للملك فاروق: أترك لى هؤلاء الضباط وأنا أقضى عليهم.

ولذلك ذهب جمال عبد الناصر وحسن إبراهيم وحسن التهامي وكمال رفعت إلى بيت حسين سرى عامر. وتسلق حسن التهامي مواسير المياه، وأطلق الرصاص على حسين سرى عامر فلم يصبه. وهربوا معا بسيارة جمال عبد الناصر. وجاء البوليس يقتفى أثرهم.. واهتدى إلى آثار عجلات السيارة الصغيرة. ولكن جمال عبد الناصر غير هذه العجلات. فلم يعرف أحد من الذى كان يريد قتل حسين سرى عامر.. وعندما قامت الثورة أدرك حسين سرى عامر أنها نهايته. فحاول الهروب. وأمسكناه وهو فى طريقه إلى ليبيا. وحوكم. وصدر ضده حكم. ولكن جمال عبد الناصر، أكرمه، وصرف له معاشا شهريا.

ولكن فى هذا اليوم قررنا أن يكون موعد قيام الثورة هو يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وفى هذا الوقت وصلت إلى القاهرة الكتيبة ١٣ بقيادة صلاح نصر. وهى الكتيبة التى نعتمد عليها فى حركتنا وتنفيذ المراحل النهائية للثورة.. واستبدل الملك بحسين سرى عامر، إسماعيل شيرين زوج أخته الأميرة فوزية.. ولم يكن ضابطا فى الجيش، واعتبر الجيش أن تعيينه إهانة أخرى.. ثم صدر مرسوم تشكيل الوزارة الجديدة برئاسة أحمد نجيب الهلالى فى ٢٢ يوليو.. ولم تبق هذه الوزارة سوى ساعات.. وعلى المؤرخين أن يشغلوا أنفسهم بالأسباب التى أدت إلى اختيار أحمد نجيب الهلالى مرة أخرى للوزارة.. وأسهل وأصدق التفسيرات هو أن الملك قد استخف بكل شيء وبكل الناس.. وأن أحدا لم يعد يهمه لأنه لا يجد أحدا يقف فى وجهه. وإنما الكل فى انتظار رضائه السامى..

لقد كان الدافع العام عند الزعماء ورؤساء الوزارات شخصيا بحتا. وكانت وزارات المائتى يوم هذه، صورة صارخة للاستهتار من جانب الملك، والهوان من جانب رؤساء الوزارات والوزراء.. وليس مرتضى المراغى إلا نموذجا لذلك. فهذا الرجل لا نكن له أى احترام من الناحية الوطنية لقد كان أبوه رجلا وطنيا. فعندما كان أبوه شيخا للأزهر أعلن فى بداية الأربعينات وأثناء الحرب العالمية الثانية: إن هذه الحرب ليست لمصر فيها ناقة ولا جمل

- أى ما شأننا وما شأن حرب بين الانجليز والألمان إنهم يحاربون لأسباب خاصة بهم، فلماذا ندفع نحن الثمن؟!

وكان هذا الرأى كافيا للإطاحة به.

أما ابنه أحمد مرتضى المراغى، فلم يكن وطنيا بأى معنى. فقد خرج من مصر وعاش يهاجمها. وحوكم غيابيا. وحكم عليه بالإعدام. وتجريده من الجنسية المصرية.

وتلقيت خطابا من والدة أحمد مرتضى المراغى، تقول فيه إنها مريضة وإنها تريد أن ترى ابنها قبل أن تموت.. ووافقت على أن يجيء مرتضى المراغى ويجلس مع والدته، وتسقط عنه كل الأحكام. وتعود إليه جنسيته المصرية. وأنا ضد أن يحرم الإنسان من جنسيته المصرية، لأى سبب. أما أن يسجن الإنسان أو حتى يعدم، فهذا يحدث ولكن أن نحرمه من مصريته مهما كانت غلطته، فهذا ليس من حقى، ويجب ألا يكون من حق أحد.. إننى أعترف بريفيتى، وبأن القرية والأرض هما بشرتى ودمى.. وانتمائى إلى الريف وإلى ميت أبو الكوم بالذات، يعطينى سعادة مطلقة.. وقد عادت إلى مرتضى المراغى جنسيته، وعلى رغم أننى لم أصدر قرارا بذلك حتى الآن.

وعلى الرغم من أن مرتضى المراغى قد أخطأ كثيرا فى حق مصر وشعبها، فإن الذى لمسه خارج مصر من الهوان بعد الثورة وعذاب ما بعده عذاب ولكن أن يعود إلى مصر، لا لشخص، وإنما من أجل سيدة مريضة، عقاب آخر..

ولا بد أن يعود المؤرخون إلى حكومات المائتى يوم هذه، ويدرسوها ويحللوها . وسوف يجدون فيها الصورة المضادة تماما للثورة المصرية وكل أحلامها وآمالها.. صحيح أن هذه الوزارات بتواليها الهزلى المهين هى السبب. وأنها كانت أحد الأغراض الفاضحة لفساد الحكم، وقد أحبطه الشعب بوعيه ورفضه.. وكانت ثورتنا على كل أشكال وألوان الفساد والعمالة والخيانة..

ويكفى أن يعود الإنسان إلى فرحة الشعب بقيام الثورة ونهضة الروح وحيوية الأقلام فى ذلك الوقت يتأكد لدينا جميعا: أن الشعب لم يمت، وأن الأمل لم ينطفئ. وأن مصر العريقة ليست عقيما.

ولم تكن مصر كذلك فى يوم من الأيام.. وإنما أصابها ما أصاب كل الشعوب من نوبات الضيق، وأزمات اليأس. وكل ذلك مضى، ولا بد أن يمضى، ليعود فى صورة أخرى، وينهض أبناؤها للأخذ بيدها.. وإلى الأبد!

وقد قام بالثورة شــباب من أبنائها، وهم شــباب لأن مصر العريقة العظيمة شــابة، إلى الأبــد.. وقد نهضت مصر بأبنائها لتقويم الذى أعوج فى ســلوك حكامها، ولبناء ما هدموا، ولتجعل القيم الأخلاقية والمبادئ ومصر نفسها فوق الجميع.

ونحن الشباب، ولم نعرف اليأس، وعلى رغم قسوة الحياة، والظروف العاتية، والعقبات المدمرة. وإنما إيماننا بالله وبأنفســنا وشــعبنا، هو الذى جمع بيننا فى وجه كل الســلطات المصرية والأجنبية حتى كان لنا النصر بإذن الله ومن أجل مصر..

❑❑❑

١ – الملـك فـاروق عندما كان صبيا .

٢ – الملك فاروق وبجواره مصطفى النحاس باشا .

٣ – عبد الناصر ومحمد نجيب .

٤ – على ماهر باشا .

٥ – يوسف رشاد

٦ – أحمد حسنين باشا

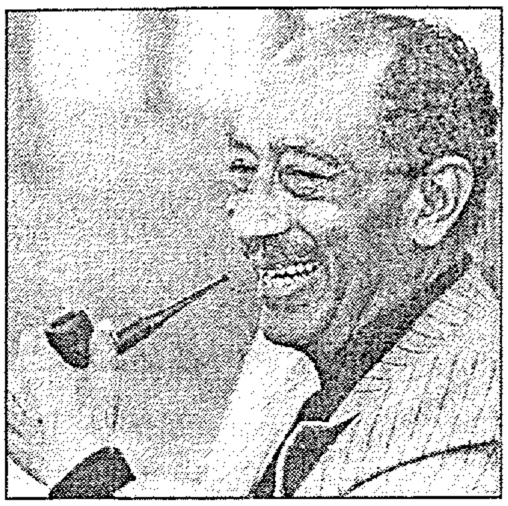

لحظات لا تنسى

■ محمد إبراهيم إمام رجل مهذب ولكن وظيفته مفزعة.

■ كامل القاويش ارتبطت ترقيته بلف حبل المشنقة حول عنقى.

■ حينما نسى أنور حبيب حدود وظيفته وهاجم الإنجليز.

■ لم أجد لى وظيفة فى أى مؤسسة صحفية.

لعلها لحظات تأمل. أستعرض فيها أحداثا من حياتى..وأتوقف عندها. وأحاول أن أستخرج منها المعنى والحكمة وأسوقها لطلائع مصر من الشباب.. فقد كنت شابا مثلهم. وكنت أتابع ما يجرى حولى باهتمام شديد. ومن غير الاهتمام الشديد، والاشتراك فيما يجرى حولنا، من الصعب أن يكون للإنسان دور فى حياته. فإذا كان له دور وآمن به، فمن الصعب أن يزحزحه أحد عن هذا اليقين. وإلى هذا اليقين النفسى والثقة التامة فى نفسى وفى ربى وحبى لوطنى، أعزو كل ما أصابنى وكل ما أصبت بعد ذلك..

وأنا أولا وأخيرا فلاح. أحتفظ للريف بكل قيمى وكل آمالى، وكل آلامى أيضا. ويوم دخلت السجن. وانسدت كل أبواب الفرج فى وجهى. ويوم فصلت من الجيش ويوم انتزعت من أسرتى. ويوم انحشرت الحياة بين جدران مظلمة باردة. أدركت أنه لم يبق لى إلا قريتى.. إلا الريف. إلا الأرض والزرع وأهلى.. وإلا الحياة البسيطة. كسرة الخبز وشربة الماء – هكذا تعلمت من جدتى أول درس فى الانتماء إلى الأرض.

ولا أدعى أننى أملك فى قريتى شيئا: لا مالا ولا نسبا ولا حسبا ولا طبقة. لا شىء إلا نفسى. وليس هذا الذى أملكه قليلا. وقد كشفت لى الأيام أننى أخفى تحت جلدى شعورا قويا بأننى «شىء آخر» .. وبأننى مختلف عن الآخرين.. وأن هذا الاختلاف عن الآخرين يضاف إلى حسابى، ولا يخصم من حسابى.. إن فى داخلى «شعورا بالامتياز» .. لا أعرف معنى هذا الشعور ولكن هذا الشعور يعوضنى عن الضياع الذى أحسست به فى السجن وفى الشوارع.. إن هذا الشعور هو الذى يوضح لى معالم الطريق، وهو الذى يضىء لى يوم تظلم الدنيا، وقد أظلمت كثيرا.. وهو الذى يتحول إلى غطاء فى الليلة الباردة، وإلى أمان فى الليلة التى أرتعد فيها خوفا..

وليس هذا الشعور بالامتياز غرورا، ولا زهوا، ولا رغبة مكبوتة فى التشفى والانتقام.. لا شىء من ذلك،فليس عندى ما أزهو به.. فما الذى يمكن أن يزهو به فلاح صغير فقير.. وقد امتلأت حياتى بأحداث كثيرة وأسماء كثيرة.. أسماء للأشخاص وللأماكن. وأنا – ولله الحمد –

استمتع بذاكرة تصويرية قوية.. فأنا أستطيع أن أتذكر «هيئة الأشياء» وشكل الأشخاص... فأتذكر أن فلانا جاءنى من ثلاثين أو أربعين عاما، وكان يرتدى قميصا وبنطلونا وكان لون القميص أبيض وكان لون البنطلون رماديا.. وأكثر من ذلك أننى أستطيع أن أتذكر التواريخ بمنتهى الدقة ولابد أن يكون سبب ذلك أن ذاكرتى مغناطيسية. أما سر ذلك فهو أننى شديد الاهتمام. وكل شىء عندى له معنى وله دلالة. وهذا الاهتمام هو المغناطيس الذى يمسك الأشياء والأشخاص والأحداث فى ذاكرتى.

وقد عاونتنى هذه الذاكرة كثيرا وقد لاحظت ذلك على نفسى وأنا فى السجن. فكان خيالى يروح ويجىء بين الطفولة والرجولة، ذهابا وإيابا.. وكنت فى ساعات فراغى فى داخل السجن أحاول أن أسترجع الكتب التى قرأتها وأرقام التليفونات وأرقام محاضر البوليس وأرقام السيارات وعدد السلالم والأبواب والنوافذ..

وتذكرت فى السجن قصة للكاتب النمساوى استيفان تسفايج اسمها «اللعبة الملكية» .. وفى هذه القصة يروى حكاية سجين كان بطلا فى الشطرنج. ولم يكن مسموحا له بأن يقرأ أو يكتب، فراح هذا السجين يستعرض لنفسه كل ما يحفظه من الشعر والنثر. فإذا فرغ من تلاوته لنفسه، عاد فتلاه بالمقلوب.. ثم إنه أمضى الوقت فى وضع ألغاز فى الشطرنج وراح يحلها.. ويجعل عشرات من الناس يلاعبونه فى وقت واحد ثم يتغلب عليهم.. قرأت هذه القصة وقلت لنفسى: خيال كاتب وليس له أساس من الصحة حتى دخلت السجن، فوجدت أن الذى قاله صحيح. ورأيتنى أفعل ذلك. بل رأيتنى أحسن حالا، فقد فكرت وتأملت وقررت وتعلمت. ورسخت فى أعماقى دروس فى غاية العمق..

وسوف أعود إلى ذلك فيما بعد..

وهذه التأملات تعطينى حريتى فى أن أتجول بعقلى وخيالى فى حياتى كلها طولا وعرضا أستخلص المعنى والحكمة. وأدعو غيرى لأن يقرأ ويفكر ويوقن فى البداية والنهاية أنه لا يأس مادام الإنسان حيا. وشىء أهم من ذلك فى نظرى: أن الإنسان قيمة. وأن الله لم يخلق أحدا عبثا. وأن الإنسان يستطيع أن يجعل لنفسه قيمة، ولحركته هدفا، ولدوره فى الحياة وزنا. ولكن المشكلة الحقيقية فى حياة الناس- وهذا ما اهتديت إليه فى السجن أيضا – أن الناس تأخذهم الحياة.. وتخطفهم لقمة العيش، وليسوا هم الذين يخطفونها..، والسلطة تسلب إرادتهم، ولكن لو اتسع وقت الإنسان، وتوقف لحظة واحدة يستعرض حياته.. وينقى

عقله من شوائبه، ونفسه من شواغلها، ووجدانه من هواجسه.. هنا فقط تنكشف للإنسان حقيقته. وهنا فقط من الواجب عليه أن يقرر: كم تساوى هذه الحياة؟ أو كم يساوى هو؟

أما أنا فقد أجبت عن هذا السؤال: إن حياتى تساوى الكثير.

ولذلك استهنت بالخطر، واستخففت بالخوف. ووجدت أن العقبات فى حياتى ضرورة حتى لا أنزلق. ولولاها ما ثبتت قدمى على الطريق..

عندما جاء الملك عبد العزيز آل سعود فى أول زيارة لمصر فى يناير سنة ١٩٤٦ كنت أقف على ناصية الشارع بين عبد الخالق ثروت وابراهيم باشا واحدا مجهولا بين مئات الألوف وقفوا يتفرجون على أسد الجزيرة العربية وبطل أبطالها.. وقد تقدمت الملك عبد العزيز الموتسيكلات التى يركبها رجال الشرطة الملطيون. فقد كان البوليس فى أيدى الانجليز. وكان الكونستبلات يتلفتون يمينا وشمالا، حرصا على سلامة الملك. وكان البوليس يبحث عنى أيضا، ويخاف منى على الملك.. وكنت أضحك، بين الناس الذين لا يعرفوننى وأقول: مالنا والملك عبد العزيز.. فليس هذا الذى نريد أن ننتقم منه!

وكان أمين عثمان قد اغتيل قبل ذلك بخمسة أيام. وألقى القبض على حسين توفيق وآخرين، وبدأ التحقيق معهم، وبدأ حسين توفيق يعترف بكل شىء حتى بمخازن الأسلحة التى أخفيناها فى مغارات المقطم.. إذن سوف يجىء دورى بين لحظة وأخرى مافى ذلك شك..

ولا شىء أبشع فى حياتى كلها من لحظات الانتظار لمصيبة سوف تقع. والمثل الشعبى عندنا يقول: وقوع البلاء أهون من انتظاره.. وأمضيت أياما طويلة فى انتظار هذا البلاء حتى كان ذلك البلاء..

ولابد أن أتوقف، حتى وأنا أسجل هذه السطور، لكى أعود بذاكرتى للهيئة التى تم بها هذا البلاء.. ففى تلك الليلة عدت متأخرا، وسهرت بعض الوقت. وأويت إلى فراشى.

ولابد أن أتوقف لحظة أخرى أجمع أنفاسى وأضم أصابعى على القلم وألاحق هذه الكلمات بعينى. فإننى أكره بياض الورق الذى أمامى. ولذلك سبب سوف أصفه حالا.. بل هو الشىء الوحيد الذى هز أعماق أعماقى. ولم أنسه لحظة واحدة. وكان من أوائل القرارات التى اتخذتها عندما أصبحت رئيسا للجمهورية بعد ذلك اليوم بأربعة وعشرين عاما. !

وليس من السهل على الآن أن أتجه مباشرة إلى وصف اللحظة الرهيبة.. فقد كنت أقرأ لطه حسين أوصافا غريبة للأشياء. فكان يقول: صوت أبيض.. أو صوت نحيل.. وكنت أندهش كيف يكون الصوت أبيض وكيف يكون نحيلا؟

حتــى كانت تلك اللحظــة. فقد عرفت «الخــوف الأبيض» .. أما أنه خــوف. فمن المؤكد أنه كذلك.

أما أنه أبيض فهذا ما سوف أرويه، وفى ذلك اعتذار عن دهشتى لما كان يقوله طه حسين.. فجــأة، فى تلــك الليلة، انفتح نور الغرفة. وكنت تحت الغطــاء نائما تماما. الغرفة مظلمة. الظلام والســكون والدفء والأمان هى الجدران الأربعة التى كنت مسترخيا فيها أو تحتها.. وفجأة أضىء كل شــىء.. وتبدد كل شــىء: الدفء والأمان والســكون، حتى الخوف تبدد.. فلم أعد أشــعر بالخوف. إنما قد لفنى شــعور بالاحتقار الشديد لهذا الذى أمامى: طابور من الرجال يتقدمهم محمد إبراهيم إمام رجل البوليس السياسى ونجم الفزع فى ذلك الوقت. وهو رجل مهذب وفى غاية الأدب ولكن وظيفته مفزعة..

وحاولت أن أجمع قواى وأن أخفى ضيقى وقرفى وفزعى أيضا، فقلت لمحمد ابراهيم إمام: معــك أمر من النيابة؟ فتراجع محمد ابراهيم خطوة إلى الوراء فى أدب. وأشــار إلى شــخص وراءه: معى النيابة كلها! وكان وكيل النيابة هو كامل القاويش، وهو أيضا من وكلاء النيابة اللامعين، ومن رجال الملك. الذى عينه بعد ذلك محافظا للقاهرة حتى قامت ثورتنا بعد ذلك بست سنوات. وهو منصب لا يرقى إليه إلا من كان رفيع الشأن أو من محاسيب الملك..

انتهت اللحظة التى أفزعتنى والتى جعلتنى أقرر بعد ذلك، وإلى الأبد، ألا يقبض على أحد ليلا أو عند الفجر.. وألا يصاب أحد بما أصبت به فى نفسى وفى أهلى وفى حرمة بيتى..

وأعترف أن هذه الحالة النفســية التى هزت أعماقى ظلت كامنة فى نفســى، وقد نغصت حياتى كلها.. وعندما انفردت بنفســى أفتش فيها عن مصادر متاعبى، وضيقى بكل شــىء.. لم أهتد إلى شــىء.. فكنت أقول لنفسى: إن السجن لا يضايقنى. إنى اخترت العمل السياسى. وهذا السجن ضرورة. فأنا الذى اخترت ومادمت اخترت فمن الواجب أن أتوقع كل شىء..

وأتساءل من جديد: إذن ما الذى يضايقنى؟

وأخــيرا اهتديت بعد ســنة ونصف ســنة، إلى أن هذا «الخوف الأبيــض» هو الذى صبغ بالســواد فى حياتى.. فلما عرفت هذا الســبب العميق، خفضت قبضــة القرف واليأس الذى ساورنى بعض الوقت.

وإننى أعترف أيضا بأننى لم أسمح لليأس أن يســتبد بــى طويلا. حدث أن ضقت بالدنيا. ولكن لم تفاجئنى الدنيا بما لم أكن أتوقع.. ثم إنه مهما حدث لى فإننى لن أخشى شيئا، ففى

داخلى ذلك الكنز الذى اهتديت إليه: أن هناك شيئا فى أعماقى أعتز به. وهذا الشيء أو هذا الشعور بالامتياز، هو الذى كان يعوضنى أولا بأول عن كل خسارة تصيبنى.

وفى سجن الأجانب عرفت معنى الانتظار الأليم.. فقد تركونى بلا محاكمة عشرة أيام. وشكوت إلى النائب العام. وجاءنى كامل القاويش يسألنى عن البرقيات التى أرسلتها للنائب العام. فقلت: إن أحدا لم يسألنى إن كنت شاركت فى اغتيال أمين عثمان.. واتصلت بشكل ما، بحسين توفيق وآخرين ليعدلوا عن أقوالهم. وعدلوا. ثم عاد حسين توفيق فأكد أقواله. ثم عدل وعدلوا.. فأبعدونى من الدور الأول فى سجن الأجانب، إلى الدور الثانى. وطلبت مواجهتهم جميعا. وواجهتهم وعدلوا عن أقوالهم.

ثم نقلونى إلى سجن قره ميدان.

ولابد أننى فكرت كثيرا فى كامل القاويش هذا. إنه وكيل نيابة يؤدى واجبه. وواجبه أن يلف حبل المشنقة حول عنقى بإحكام شديد. ويكون إعدامى بعد ذلك سببا من أسباب ترقيته إلى وظيفة أعلى. وأنا لو استطعت أن أغتاله لفعلت.

كلانا له هدف.. أنا: هدفه.

وهو: هدفى.. والنظام الذى يمثله.

فلم يكن كامل القاويش بالذات وإنما النظام الفاسد غير الوطنى الذى يبيع الشعب ويشترى الإنجليز والسلطة، هو هدفى. وليس أمين عثمان هذا إلا عميلا بريطانيا خائنا. ويوم اغتياله كان يتناول غداءه مع السفير البريطانى- منتهى الرضاء والقوة والسلطة. بل إنهم كانوا يعدونه لأن يكون رئيسا للوزراء.. فهو الرجل الذى أراد أن يزوج مصر إلى بريطانيا «زواجا كاثوليكيا» - أى زواجا بلا طلاق!

وتصادمى مع كامل القاويش هو تصادم إرادتين. إرادته هو وإرادتى أنا أيضا.

وأشهد أن كامل القاويش كان رجلا مهذبا. ولكن دوره فى حياتى دور كريه. وكان يؤدى هذا الدور الكريه بمنتهى البراعة!

وهنا أتذكر مقالا لأديب مصرى كبير هو أحمد أمين.. فقد كتب مقالا عن أن «الحياة رواية».. وأن كل واحد منا له دور فى هذه الرواية وأن هذا الدور، كالرواية نفسها مؤقت.. ففى هذه الرواية نجد رجلا يقوم بدور الملك، ولكنه لا ينطق بكلمة. وعلى الرغم من أنه أهم شخص، فإن أحدا لايهتم به فهو منظر. ثم إنه لايتكلم.. ومن الممكن أن نجد فى الرواية

خادما، ولكن دوره حيوى وشخصيته جذابة.. فعلى الرغم من أنه أدنى من الملك بكثير. فإن دوره أكثر حيوية وأهمية.. ومن الممكن أن نجد فى هذه الرواية جلادا سفاحا كريها..

ومعنى ما كتبه أحمد أمين هو: ليس المهم المنصب الذى يشغله الإنسان فى الرواية أو فى الحياة، ولكن المهم: هل يؤديه بإتقان؟ لأنه من الممكن أن يؤدى إنسان دورا كريها ولكن بصورة رائعة.. ولذلك وجدت العذر لكامل القاويش، أنه يؤدى دوره ويريد أن ينجح.. ولما أحس أننى سوف أؤدى إلى فشله، نقلنى من سجن الأجانب إلى سجن قره ميدان.. ولا ألومه، فلكل واحد منا دور فى الرواية أو فى الحياة.

وفى المحكمة رفض أنور حبيب، وهو وكيل نيابة آخر أن يؤدى دوره الكريه بإتقان.. وإنما نسى أنه وكيل نيابة وأن من المفروض أن يرفعنى إلى المشنقة.. فهاجم الانجليز.. فهم الأعداء الحقيقيون لمصر.. وأن العداء لهم حب لمصر، وأن الثورة عليهم واجب وطنى.. وقال أيامها: إن كل كلب في مصر ينبح يلعنهم، وكل هواء يريد أن يعصف بهم..

إن أنور حبيب - بلغة المسرح - قد خرج على النص المكتوب.. وأضاف من عنده مالم يكتبه المؤلف..

أضاف هذا البعد الوطنى، الذى من الصعب أن يتجرد منه أى إنسان!

وأمام محكمة الثورة وكنت عضو اليمين، وقف أمامى كامل القاويش محافظ القاهرة متهما بالفساد. أو بالاشتراك مع الملك فى إفساد الذمم والحكم. ووقف وكيل النيابة العسكرية يهاجم كامل القاويش، كما هى العادة. ولكنه ارتكب خطأ. فقد روى موقف كامل القاويش من قضية أمين عثمان. وهنا التفت إلى عبد اللطيف بغدادى رئيس المحكمة وقلت له: يا بغدادى.

قال لى: نعم.. قلت: ارفع الجلسة لأن وكيل النيابة قد أثار موضوعا أنا طرف فيه. ولابد أن أوضح لك الموقف. ورفعت الجلسة.

وقلت له: واحد من اثنين: إما أن ترفع من محضر المحكمة كل ماورد عن قضية أمين عثمان، وإما أن أتنحى.

قال لى: وهو كذلك. يرفع كل ما يتعلق بهذه القضية.

وعادت الجلسة. وأعلن البغدادى أن المحكمة قررت استبعاد كل ما يخص قضية مقتل أمين عثمان.

ولم يكد القاويش يسمع قرار المحكمة حتى نهض واقفا قائلا: كنت على يقين من أن هنا عدالة وقيما أخلاقية..

وحوكم القاويش. وأدين. ولم تنته هذه الجلسة من ذاكرتى.

وإنما استعدتها كثيرا وطويلا فى طريق عودتى إلى البيت.. تذكرت يوم أضاءت غرفتى لتظلم نفسى، ولأراه أمامى هو ورجال الشرطة.. وأرى كل شيء يتساقط من حولى: الفراش والنوم والأمان.. وكيف أننى تمنيت أن أقتله.. وكيف إنه حاول أن يستدرج حسين توفيق وآخرين إلى الاعتراف بكل شيء. واعترفوا عند منتصف الليل، فلم يكن يحقق معهم إلا عند منتصف الليل، وهو يقدم لهم الكفتة والكباب.. وكيف لم يتركوا شيئا واحدا سرا.. وكيف إنهم قالوا إن هناك تنظيما عسكريا آخر لا يعرفونه.. وإننى همزة الوصل بين التنظيمين المدنى والعسكرى.. وكيف إننى أبرقت مرات للنائب العام أتهمه.. وكيف إنه ضاق بى.. وكيف كنا نتصادم، كل واحد منا يريد أن يحقق انتصاره على جثة الآخر..

ثم دارت الأيام، وأتت به الثورة متهما أمامى، هو والنظام الذى يدافع عنه ويمثله..

وأعود إلى نفسى. فما الذى أجده فيها. لم أضمر له أى شيء عندما حكمت المحكمة ببراءتى. لقد انتهى كل شيء. وكان على أن أبحث عن عمل. فأنا رب أسرة. وأنا فقير. وحاولت أن أجد عملا. ثم اتجهت إلى الأعمال الحرة، ولكن الذى فى أعماقى لم يهدأ. ولم يسكن. إن شيئا فى داخلى يقول لى: أنت أقوى من هؤلاء.. أنت أقوى من الحكومة.. أنت أفضل من هؤلاء.. إن لك دورا آخر.. لا شماتة ولا مرارة.. لا حقد.. وعندما وقف كامل القاويش أمامى.. أنا فى مقعد القوة، وهو فى هوان الضعف. وجدت أنه: ليس القوى الذى ينتقم من الضعيف.. فلست قويا لأنه ضعيف، ولكنى كنت قويا يوم كان كامل القاويش قويا.. إنه لم يستطع أن يقهرنى، ولم يستطع أن يحطمنى. إن الذى فى داخلى أقوى وأرسخ.. وإن هذه النزوات العابرة تفسد طاقتنا، وتبدد قدراتنا، وتضلنا سواء السبيل..

أما الذى تعلمته من تجاربى فيما بعد، فهو أنه ليس أقوى من الإنسان إذا اهتدى إلى هذه الحقيقة. أى إلى أنه قوى وأنه قوى بصفاته الذاتية، لا بأهله ولا بماله ولا بطبقته.. إنه أقوى إذا اختار أن يكون صادقا مع نفسه صادقا مع ربه.. وسوف ينتهى من ألوف التجارب العميقة فى حياته إلى حقيقة أخرى بسيطة قليلة الكلمات ولكنها عميقة المعانى صعبة التطبيق: أنه لا يصح إلا الصحيح.

إننى عندما أستعرض خط حياتى طالعا نازلا، معتدلا ملتويا، ظاهرا خفيا فإننى أهز رأسى مستمتعا بما حدث.. فلا شيء يبعث على رأسى أو على الأسف، وإنما كل شيء يمشى نحو قدرى.. وقدرى هو إرادة الله.. ولو عدت بذاكرتى إلى ما كانت عليه حالتى فى سنة

١٩٤٩ حتى يوم ١٠ يناير سنة ١٩٥٠، لوجدت شيئا لا يصدقه العقل. ولكنها إرادة الله فوق كل إرادة، وحكمته فوق كل تدبير.. وصدقت الكلمة المأثورة التى تقول: يدبر المدبرون والقضاء يضحك!

إن الإنسان يدبر ولكن قضاء الله وقدره قد أعد لنا شيئا آخر!

من الذى يستطيع أن يتصور أن هذا الشاب الذى كان مفلسا تماما سوف يكون رئيسا لجمهورية مصر بعد عشرين عاما. ثم يختار له القدر مصيرا لا يخطر له أو لأحد على بال. أن يشارك فى ثورة يوليو ٥٢ وأن يقوم بالثورة عليها فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ وأن يتحقق له وعلى يديه وبفضل التضامن العربى، أعظم انتصارات الأمة العربية.. وأن يجنب أبناء مصر كل أنواع الذل والظلم والهوان والفزع الذى عاش به وثار عليه طول عمره فيلغى المعتقلات ويؤمن الناس من الناس فلا يخافون. وأن يجعل القانون سيد الجميع. وأن تكون الحرية هواء للجميع. وأن يختلف الناس فى رأيهم ويحميهم القانون. فليست الديمقراطية هى الرأى الواحد والحاكم الواحد. وإنما الديمقراطية حياة لكل الناس، وحكم للشعب بالشعب.

وقد تجاوزت عن الهوان والمهانة الشخصية، من أجل مصر.. وعندما حاولت دولة عظمى أن تقيد الإرادة المصرية، لأى سبب، كان طرد الخبراء السوفيت.. وعندما ارتبكت مصر فى قرارها سنة ١٩٤٨ ضد اليهود وقرارها سنة ١٩٦٧ ضدهم أيضا، جاءت حرب ١٩٧٣ نموذجا دقيقا للإعداد والاستعداد والتمويه العلمى واستخداما رائعا لأحدث الأسلحة..

إن أحدا لا يصدق ما حدث فى العشرين عاما حتى سنة ١٩٧٠..

فى سنة ١٩٤٩ كنت قد تزوجت. وكنت أقيم فى بيت زوجتى. وكنت قد اشتغلت بالأعمال الحرة. وكان من الممكن أن أكسب الكثير لو مضيت فيها. ولكن شيئا فى داخلى ينكر على أن أشتغل تاجرا. فهدفى وأملى وحياتى ومماتى من أجل السياسة. فقد اتجهت إليها صغيرا. واليوم أقول إننى لم أتجه، ولكن إرادة الله وجهتنى.. ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ صدق الله العظيم. فقد كانت حكمته تقلبنى فى النار وفى الظلم والظلام لكى يقوى عودى ويشتد. ولكى تنضج قدراتى هذا ما أستطيع أن أقوله اليوم. ولكن فى ذلك الوقت كنت تعيسا معذبا. لا أعرف ما الذى أفعله: فقد كان أثاث بيتى عند النجار. وكان يهددنى بأننى إذا لم أحمله وأنقله إلى البيت فسوف أدفع إيجارا لذلك أو سوف يبيعه.

وأذكر أننى اكتشفت فجأة وبصورة مروعة أن كل ما فى جيبى هو مائة وعشرون قرشا. إننى أتكلم عن أواخر سنة ١٩٤٩. وكان مصدر عذابى ليس هذا المبلغ الضئيل

فقط. ولكن أن أجـد نفسـى بلا عمـل.. أو أن أجد نفسـى بلا هدف.. ولم أكـن تاجرا. ولا أعـددت نفسـى لأن أكـون كذلك.. وأقول الآن: إن الله لم يشـأ أن أكـون تاجرا يبيع ويشترى ويكسب..

وكنت مطالبا فى ذلك الوقت بأن أبحث لى عن عمل.. ولا أعرف ما الذى أستطيع أن أعمله.. وكل ما أقدر عليه فى ذلك الوقت هو أن أرتدى ملابسـى بسـرعة. وأخرج من البيت بسرعة. والذى يرانى هكذا يخيل إليه أننى أريد أن ألحق مواعيد العمل.. أو أريد أن ألحق الأتوبيس. والحقيقة أنه لا شـىء من ذلك. وإنما أنا أوهم نفسـى وغيرى. وقـد أنجح فى إيهام غيرى، أما إيهام نفسى فكيف؟!

وكنت - اسـتمرارا فـى هذا الإيهام المزدوج - أذهب إلى كازينـو بجوار كوبرى الجيزة. وأجلس. ثم أنهض بنشـاط واتحدث فى التليفون وادفع القرش ثمن المكالمة. وبعد المكالمة أقول لنفسـى أصبح الذى فى جيبى الآن: ١١٩ قرشـا - ثم ١١٨ قرشـا.. إلى نهاية العد التنازلى.. وكلما نقص المبلغ الزهيد الذى فى جيبى، أحسست أن قلبى هو الآخر ينزل فى قدمى.. ولكن شـيئا فى داخلى يقول: اصبر.. سوف تفرج.. أو أردد القول المأثور: اشتدى أزمة تنفرجى- أى كلما اشـتدت الأزمة واحكمـت حلقاتها الخانقة، انفرجت بـإذن الله.. هذه المعانى التى تتردد فى أعماقى، تؤكد إيمانى بالله، وإيمانى بأن الفرج قريب. !

وخطـر لى أن أشـتغل بالصحافة. فقد كنـت صحفيا. والصحافة قريبة من نفسـى.. فهى اشتغال بالسياسة أو اقتراب من ذلك. وهى صناعة التعبير عن الناس والتأثير فيهم.

ثم إن عندى ما أقوله. فقد كنت معروفا فى ذلك الوقت. فقد شاركت فى قضية أمين عثمان، كما هو معروف.. وكتبت الصحف عنى الكثير. وعندى مذكرات وذكريات. ثم إن صناعتى هى الكتابة أو الخطابه.. أى صناعتى الكلام..

وذهبت إلى صديقى إحسـان عبد القدوس فى روز اليوسـف، وكان الكاتب السياسى الأول فى مصر فى ذلك الوقت. وقلت له: يا إحسان..

قال: نعم.

قلت له: أريد أن أعمل فى روز اليوسف.

وكان رده أن روز اليوسـف لا تتسـع لنـا نحـن الاثنـين.. أى إنـه لا مـكان لى فـى روز اليوسف.

وسألته إن كان من الممكن أن أعمل في الأهرام. وطلبت إليه أن يتصل بكامل الشناوى – الله يرحمه – وكان نجم الصالونات السياسية فى ذلك الوقت. واتصل به إحسان عبد القدوس واعتذر كامل الشناوى بأنه لا مكان لى فى جريدة الأهرام..

وذهبت إلى دار الهلال أسأل إن كان من الممكن أن أعمل فيها أيضا. وقابلت شكرى زيدان أحد صاحبى دار الهلال ورئيس تحرير المصور. وقال لى الرجل إنه على استعداد لأن أعمل فى المصور. وأخبرنى أنه فى دار الهلال لا يوجد سوى كاتب كبير هو فكرى باشا أباظة، وأنه فى حاجة إلى أن أكون إلى جواره. وطلب منى أن أكتب وكتبت مذكراتي. وقدمتها له. ثم طلب منى أن أقوم بتفصيل بعض النقط التى جاءت فى مذكراتى. وأبديت استعدادى لذلك. ولكنه طلب منى أن أجلس وأن أكتب فورا قبل مثول المصور للطبع. وكان ذلك يوم الاثنين. ومن عادتهم أن يطبعوا الصور بعد ظهر ذلك اليوم. وبعث بمن يجلس معى وأنا أكتب. وبعد نصف ساعة فرغت مما طلبه منى. وسألت عن شكرى زيدان فقيل لى: إنه فى انتظارى.

ولم أدرك أنه كان يختبرنى ليعرف إن كنت أنا الذى أكتب. وإن كنت أستطيع أن أكتب بالسرعة المطلوبة ودون أن يراجع ذلك أحد من الناس.

وتأكد لديه كل ما كان يريد أن يعرفه. ثم بدأ يتحدث معى عن المكافأة. ودار الهلال فى ذلك الوقت كانت تتعامل بالقطعة. وفهمت فى ذلك الوقت أنهم يربطون ميزانيتهم فى ديسمبر. وبعد هذا الشهر لا يعينون أحدا.. وقد جئت بعد الوقت المحدد.. ولم يعجبنى ما عرضوه علىَّ. وعددت الفلوس التى فى جيبى فوجدتها خمسين قرشا. ومطلوب منى أن أنفق على البيت وأدفع إيجار الشقة وآتى بأثاث البيت.. وقد انسدت فى وجهى كل أبواب العمل أو الأمل فى عمل.

وإن كان باب الأعمال الحرة مفتوحا على مصراعيه.. ولكن المسدودة هى نفسى التى لم يخلقها الله لمثل هذا الطريق. وإنما طريقى مختلف. ونهايتى بعد عشرين عاما. كما رسمها الله واضح جدا أنها مختلفة إلى أبعد حد..

إذن لم يبق أمامى إلا أن أحاول دخول الجيش.

ذهبت إلى د. يوسف رشاد الذى كان طبيبا للملك فاروق بعد ذلك. وعرضت عليه رغبتى وأملى فى أن أعود إلى مكانى. واتصل د. يوسف رشاد بحيدر باشا وكانت الانتخابات العامة قد أجريت فى نهاية سنة ١٩٤٩ وظهرت فى الأسبوع الأول من يناير سنة ١٩٥٠. وكان حسين سرى باشا رئيسا للوزراء. وبقيت بعض الإعادة. وإذ بالملك يأتى بحسين سرى باشا رئيسا للديوان. ليكون عازلا بينه وبين حكومة الوفد التى جاءت قبل ذلك بالدبابات – أو

جاءت بها الدبابات عارا على العرش وعلى الشـعب وعلى السياسـة الحزبية فى مصر. وكان الوفد فى ذلك الوقت قد راح يقدم للملك تنازلات متوالية وبنفس القدر كان الوفد ينزل يسقط من عيون الشـعب. ولم تكن هذه الأغلبية السـاحقة.. حبا فى مصطفى النحاس ولكن كراهية فى فاروق. وكراهية فى السـعديين. ولكن فى نظرنا نحن الشـباب الوطنى- فقد انتهى الوفد والملك إلى غير رجعة..

وتحدد يوم ١٠ يناير سـنة ١٩٥٠ لمقابلة محمد حيدر باشا وزير الحربية. ودخلت نفس مكتب السكرتير الذى ذهبت إليه قبل ذلك معتقلا فى سنة ١٩٤٠ على أثر سقوط طائرة عزيز باشـا المصرى. وجاء حيدر باشـا وهو مشـهور بأنه رجل عنيف وأنه لا يبتسم أبدا. ورآنى وسألنى عن اسمى وقال لى: أنت ولد مجرم.. ولابد أن تاريخك أسود.

وكنت أقول له: يا معالى الباشا اسمح لى أشرح لمعاليك.

ويقول: اسكت. ولا كلمة!

– اشرح لمعاليك.

– اسكت.

وفجـأة، ولن أنسـى هذه اللحظة طول عمـرى، نادى كاتم الأسـرار.. واسمه رياض: يا رياض..

– أفندم.

– الولد ده.

– أيوه يا أفندم.

– يعود إلى الجيش.

بل يعود إلى الحياة.. لقد ردت إلىّ الروح.. سمكة وألقيت فى الماء.. عود قطن وأعيد غرسه فـى الحقل.. ميـت دبت فيه الحياة، مفلـس امتلأت جيوبه بالمال، وقلبه بالأمل، ورأسـه بالكبرياء!

والقدر هنا له دور: فلو كان الوفد قد جاء إلى السلطة، ما دخلت الجيش..

ولكن تشـاء إرادة الله أن تجرى الإعادة فى سـبعين دائرة انتخابية وأن يظل حيدر باشـا وزيـرا للحربيـة.. وأن أذهب إليه وأن يصدر أمرا بعودتى. إننـى لا أحقد على الوفد أو على أحد. فليس الحقد فى طبعى. فقد أعطانى الله وشكرا.. وأكرمنى الله والحمد لله..

ولكنها «تصاريف» القدر- كما يقول الصوفية.. وعدت إلى الجيش برتبة يوزباشي. ولكن ليست عندى بدلة. ولم أجد إلا واحدا من الضباط الأحرار كنت أسكن فى بيته. وكان فى الشقة التى تحتى. وطلبت منه بدلة سلف. وبعث بالبدلة وتشاء المصادفة أن يكون هو أيضا برتبة يوزباشى. صاحب هذه البدلة هو مصطفى كامل مراد. أما الفلوس التى فى جيبى فقد نزلت إلى أربعين قرشا.. وكان من المستحيل فى ذلك الوقت أو فى أى وقت، أن أفصل بدلة بأربعين قرشا. وفى ذلك الوقت كان مصطفى السمرى يبنى عمارة إلى جوارنا. ووجدت فيها شقة جديدة. وانتقلت إليها. ولكن الأثاث لم يأت بعد. ويجىء جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ولم أكن أعرف عبد الحكيم وإنما جمال عبد الناصر أعرفه من ١٩ عاما. وكان عبد الحكيم عامر من الدفعة التى تلينى والتى لم أرها فى الجيش ولا فى الكلية الحربية.

وقال لى جمال عبد الناصر: يا أنور.

- نعم.. هذا عبد الحكيم عامر.

- أهلا وسهلا..

- اسمع أنت ستدخل امتحانات الترقى. وعليك أن تبلغنا بموعد الامتحانات. فالضباط الأحرار هم المسئولون عن الامتحانات وعن تصحيحها وعن كل شىء وليس عليك إلا أن تحضر وتكتب أى كلام!

وبالفعل حضرت الامتحان وكتبت ما استطعت. ولكنهم سحبوا أوراقى ووضعوا أوراقا أخرى عليها الإجابات الصحيحة. فلم يكن ممكنا أن أجيب عن هذه الأسئلة. وخصوصا أن تطورات هائلة فى سلاح الإشارة الذى يعتمد على الالكترونيات تنشر يوما بعد يوم.. ولو غاب الإنسان ستة شهور عن الجيش لوجد تطورات لا تخطر له على بال.. وسلاحى هو سلاح الإشارة ولا أدعى أننى أثناء غيابى عن الجيش قد تابعت التكنولوجيا الحديثة.. وإنما كنت أتابع، أو محروما من متابعة الأحداث السياسية..

ولو تركونى لكى أستوعب التطورات الإلكترونية لاحتجت إلى عشر سنوات أخرى..

وكان هذا اللقاء وهذه الامتحانات تعديلا لمسارى العسكرى. وكل ما قاله جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت: يا أنور نحن مسيطرون تماما بالضباط الأحرار على كل شىء.. والمشوار الذى ابتدأته أنت نحن ماضون فيه.. ونصيحتى لك ألا تقوم بأى نشاط سياسى ظاهر.. لأن هناك عيونا كثيرة سوف تراقبك.. وليس من المصلحة أن يراقبوا حركاتك.. فنحن فى المراحل الأخيرة للثورة!

ومــن أهم الأحداث الخطيرة فى ذلك الوقت إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فقد أعلن الوفد ذلك فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٥١.

وفى نفس الوقت أعلنت السفارة البريطانية فى القاهرة أن الإلغاء جاء من طرف واحد.

وأعلن تشرشل زعيم المعارضة تأييده لحكومة العمال. وقال: إن سحب القوات البريطانية من مصر لا يقل خطورة عن سحبها من إيران..

ولكن رد فعل إلغاء المعاهدة عند الشعب كان هائلا. وموقف بريطانيا كان صدمة للناس.

ومــن الفرحة بإلغاء المعاهدة والضيق بعناد الانجليز تولدت شــرارة الحماس الوطنى عند العمال الذين يشــتغلون فى المعســكرات البريطانية وعند التجار والمتعهدين وعمال الشــحن والتفريغ.. فكان الإضراب العام عن التعاون مع البريطانيين..

وفــى أكتوبر كانــت أولى معارك الإسماعيليــة ضد قوات الاحتــلال. وانتقلت أصداء هذه المعركة إلى بورسعيد. وارتكب الانجليز غلطة عندما قامت قوة منهم باحتلال كوبرى الفردان الذى كان فى حماية الجيش المصرى وقتلوا اثنين من الجنود المصريين. وكان هذا الكوبرى هو الرابطة بين الانتقال من الدلتا إلى سيناء وتمر عليه القطارات المتجهة إلى العريش..

ثــم احتــل الانجليز جمرك الســويس. وعزلوا بعد ذلــك منطقة القناة كلهــا.. وتفاقمت الأحــداث ضد الانجليز وضد العرش فى نفس الوقت. وأحس الناس أن حكومة الأغلبية التى ألغــت المعاهدة لم تدخل فى اعتبارها أشــياء كثيرة. من بينهــا: ما الذى يمكن أن تفعله بعد الإلغاء فى مواجهة الانجليز أو فى مساندة الشعب أو ضبط غضبه!

وعادت المعارك الدموية إلى الإسماعيلية فى نوفمبر سنة ١٩٥١.

وفى ديسمبر كانت معركة السويس. أولى وكبرى معاركه.

وعــاد الانجليز يضربــون مبنى محافظة الإسماعيليــة بالمدافع ويهــددون بالزحف على القاهرة. وغضب الشــعب وقامت مظاهرات فى القاهرة والإســكندرية. لقد أصبح الشعب كله ثائرا على الانجليز. وضد الوفد أيضا.

ومنعت الحكومة المظاهرات وأغلقت المدارس والمعاهد. ولكن الدم يغلى فى قلوب الناس.. إن شيئا أكبر من الأحداث قد بدأ ينتشر. واتحد الناس وذابت أفكارهم ثم تبلورت فى غضبة واحدة: ضد الاستعمار وأعوان الاستعمار- والذين أتى بهم الاستعمار على دباباته!

ولم يكن غريبا أن تنتشــر المظاهرات فى أواخر ســنة ١٩٥١ ضد فاروق أيضا، فى الشوارع وفى الجامعة. وكان ذلك واضحا وبارزا ولأول مرة.. وقد ســجل المؤرخون أن المظاهرات التى

تجاهـر بالعـداء لفاروق، كانت جديدة على مصر. ولذلك لم يذهـب الناس بعيدا عندما تأكد لديهم أن هذه هى النهاية. فقد سقطت هيبة الملك.

وافتضـح أمره ولم يعد أحد يكـن له حبا او احتراما، ولا لأحد مـن الذين يتولون الحكم فى مصر.. وأدرك الناس أن السـفينة قد انقطعت كل الحبال التى تربطها بالشـاطئ.. وأكثر من ذلك أن أشـرعة السـفينة قد أفلتت حبالهـا أيضا.. وأن الموج تحت السـفينة والعواصف حولها، تهزها بعنف. ولا أحد يعرف أين النجاة ولا كيف ولا متى.؟ ولكننا كنا نعرف أين ومتى وكيف؟!

وفى ذلك الوقت أعلنت الحكومة البريطانية على لسان قائد قواتها فى مصر واسمه بريان روبرتسون: أنهم باقون، وأن شيئا مما يجرى فى شوارع مصر أو وراء كواليسها، لن يرهبهم! واشـتعل القتال فى يناير ١٩٥٢ فى مدينة السويس.. وبعد السويس معارك فى التل الكبير. وأحس الناس، أن الانجليز سوف يحاربون إلى أبعد من ذلك كالهجوم علىالقاهرة.. ولكن لم يذهبوا إلى أبعد من ذلك، خوفا من أن ينقلب الأمر تماما، وتكون ثورة شـعبية ضد الاحتلال البريطانى.. فالانجليز – على طريقتهم – يتدخلون ولكن يحتفظون بباب للتراجع..

ولم يكن الشـعب فى حاجة إلى أن يرى صورة أخـرى أو امتدادا للملك فاروق، ولذلك فقد ضج الناس سـخطا وغضبا عندمـا عرفوا أن فاروق قد رزق بولى للعهـد هوالأمير فؤاد الثانى مـن زوجته الثانية ناريمان صادق. وكان هذا الميـلاد التعيس مبررا لمظاهرات جديدة فلا هم يريدون فؤاد الأول ولا فؤاد الثانى ولا هم أصبحوا فى حاجة إلى فاروق الأول ولا الأخير!

ولا ذنب لهذا المولود فيما حدث بعد ذلك. وإنما ميلاده كان نهاية لأبيه وبداية للشعب.. وكان شـؤما على أبيه وكل أسرته! وتوالت المظاهرات ضد فاروق ومولوده الجديد.. وضد هذه الأسـرة كلها. وضد أعوانها من الانجليز، ومن صنائع الانجليـز الذين أراقوا الدماء وهدموا البيوت فى القناة ويتوعدون بالزحف على العاصمة.. وقد واجه الشعب الزحف الانجليزى، بأعمـال فدائية بطولية. وحاولت الحكومة الوفدية أن تحتوى هذه الأعمال الفدائية، ولكنها لم تفلح. فقد أفلت الزمام من يد أى أحد فى الحكومة أو فى السـراى أو فى الشـارع السياسى. وفـى ٢٥ ينايـر وقعت مذابح فى مدينـة الإسماعيلية.. فقد اعتـدى الانجليز على المواطنين بوحشـية. ولم يبق أمام الشـعب إلا أن يرد على كل السـلطات: انجليزية ومصرية.. وإلا أن يبلغ الغضب أقسـى وأقصى درجاتـه فأحرقوا القاهرة.. إلى آخر التفاصيـل الدموية الملتهبة التى نعرفها وسـجلها التاريخ لنا وعلينا: يوم ٢٦ يناير سـنة ١٩٥٢.. وقبل حريق القاهرة

بساعات امتنع عمال مطار القاهرة عن تفريغ أو شحن الطائرات البريطانية.. ولكن ارغموا على العدول عن ذلك.. وغير أن آخرين فى كل المواقع قد استأنفوا العنف والاحتجاج على كل شىء فى مصر!

وفى هذا اليوم كان الملك فاروق قد دعا إلى قصر عابدين كبار ضباط الشرطة والجيش إلى مأدبة غداء ليقدم لهم جميعا ولى العهد فؤاد الثانى البالغ من العمر عشرة أيام.. قائلا لهم: أهدى إليكم ولدنا وولى عهدنا فؤاد الثانى.

وتناهت إلى الملك أصوات الغضب ودخان السخط ونيران الثورة. ولكنه لم يشأ أن يتحرك. أو يفض المأدبة أو يأذن للضباط أن يعودوا إلى مواقعهم ليساهموا فى إخماد النار فى كل مكان.. فهو لم يتصور أن الذى حدث من الفداحة ومن الخطورة عليه وعلى ولده هذا، لدرجة تجعله ينصرف عن الغداء أو عن الحفاوة بالمولود الجديد.. أما وزير داخلية الوفد وسكرتيره فى ذلك الوقت فلم يعبأ هو أيضا بشىء من ذلك.. ولا ذهب إلى مكتبه مبكرا.. ولا حتى تأخر عن تسجيله لشراء عمارة واحد اسمه توفيق عريضة بمبلغ ثمانين ألفا من الجنيهات فى ذلك اليوم..

وعلى المؤرخين – مرة أخرى – أن يستأنفوا الحكم فى حريق القاهرة.. ليعرفوا من الذين كانوا: دخانها ولهيبها ومشعليها ومن الذين كانوا ضحاياها..

ولكننا – نحن الضباط الأحرار – قد أدركنا أن الأحداث تنطلق بسرعة. وأن علينا أن نعدل من خططنا التى أكملناها تماما.. فلم يبق إلا التنفيذ.. وكنا قد نفضنا أيدينا من كل هذه القوى المتضاربة فى مصر..

ولا أرى مرة أخرى – أن نظرية المصادفة فى تفسير أحداث التاريخ – هى النظرية النموذجية.. لأنه ليست كل أحداث التاريخ تقع مصادفة لأن هذا يلغى الإرادة الإنسانية.. ولكن الإرادة الإنسانية نفسها لا تغنى عن إرادة الله وتقديره وتدبيره.. وآمنت بالله الذى جعل شابا بلا عمل ولا أمل وليس فى جيبه إلا قروش، وقد ضاقت وانسدت فى وجهه كل الأبواب يصبح حاكما على مصر بعد عشرين عاما.. وثائرا على ثورتها مرة أخرى..

□□□

١ - عبد الناصر تبين أبعاد المؤامرة في ٥٦ فطلب من العرب عدم التدخل .

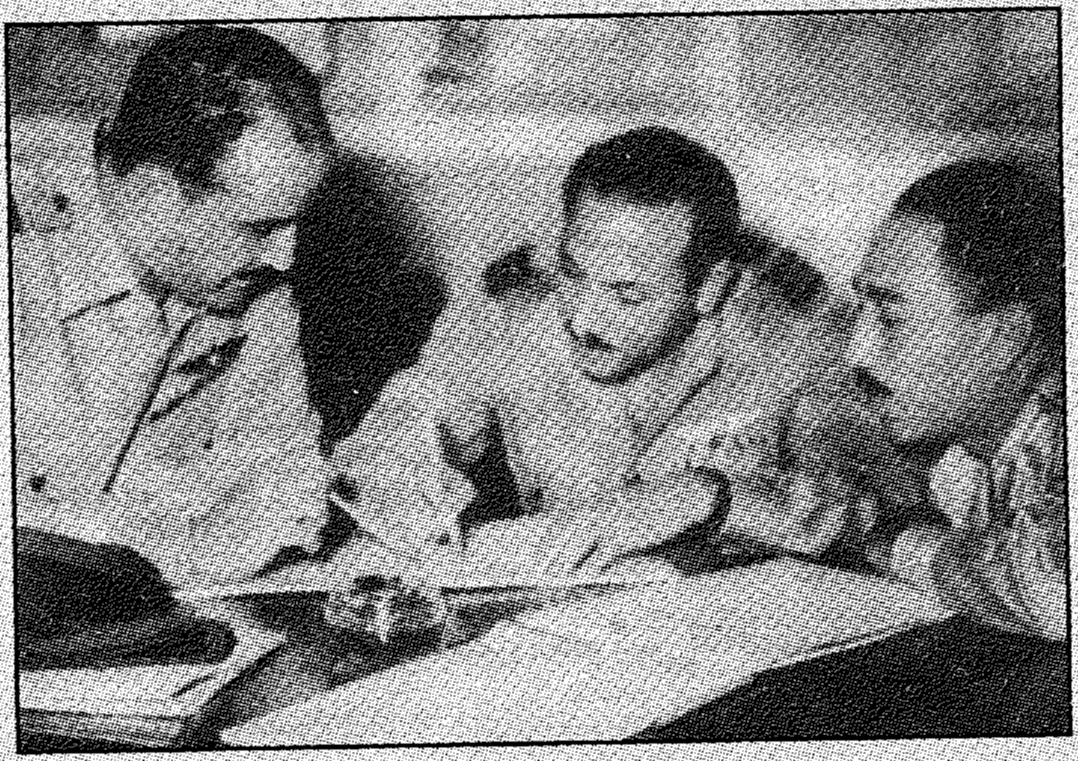

٢ - السادات وعبد اللطيف البغدادى وحسن إبراهيم .

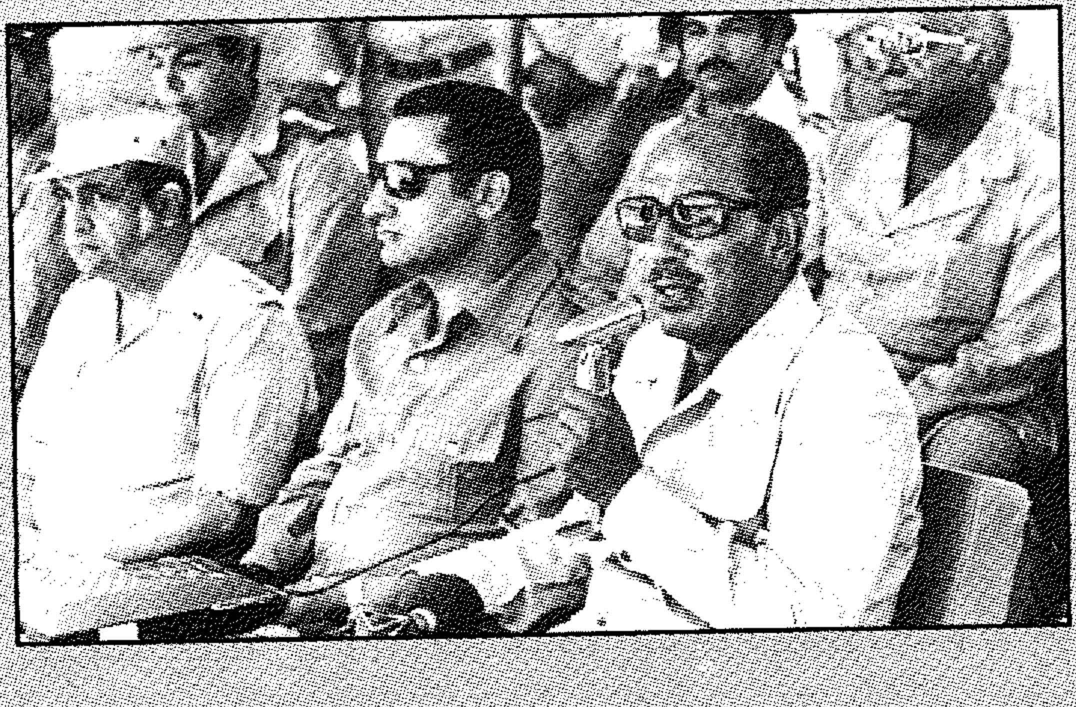

٣ - الرئيس السادات مع القوات المسلحة .

٤ - خطاب للرئيس السادات فى مجلس الشعب .

٥ - الرئيس السادات مع ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء للداخلية .

٦ – السادات فى أحد المواكب الشعبية .

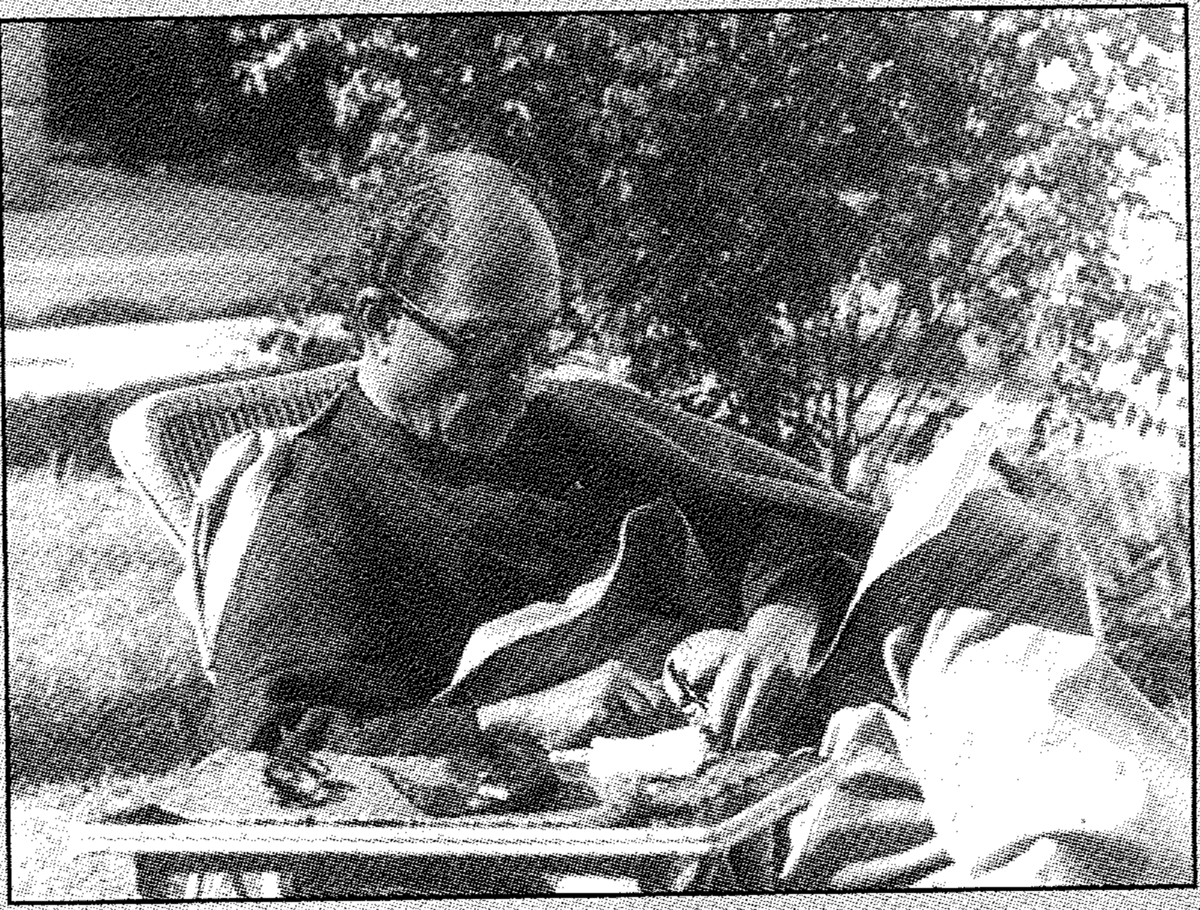

٧ – الرئيس السادات فى ميت أبو الكوم .

تأصيل بلا تفصيل

- حلقت شعرى ووضعت المونوكل كالجنرالات الألمان.
- ليلة القدر سنة ١٩٤٢ ليلة لا تنسى فى حياة السادات.
- حينما احترقت الطائرة والطيار والمعاهدة التى بعثت بها إلى روميل.
- هل يستطيع موسولينى أن يدخل مصر على حصانه الأبيض؟

لابد أن يكون لشهر رمضان المبارك معنى خاص عندى، هل لأننى ريفى ولأن رمضان فى الريف له قدسية وجلال، وله حفاوة لا نجدها فى المدينة؟..

إننـــى لم أصـم رمضان فى الريف، فقـد انتقلت من الريف إلى المدينة فى ســن الخامسة.. ولكن ظل الريف فى أعماقى. وظلت الحفاوة برمضان من أهم معالم الحياة الروحية فنحـن فى الريف نرى فى الصيام إلى جانب أنه فـرض، نرى فيه رجولة مبكرة، فالأطفال الصغار يتباهون بأنهم صائمون. بينما فى المدن نجد الأطفال والكبار يبحثون عن الأعذار لكى يفطروا.. هل لأن رمضان شــهر الصيام والصفاء لنفســى؟ - كما عرفت فيما بعد.. هل لأننى أحــب أن أتأمل حياتى وأن أنظر إلى ما كان وما ســوف يكون؟ هــل هذه الخصلة فى تكوينى جعلتنى أغرم بشهر رمضان؟.. فهو الشهر الذى يصادف الراحة التامة عندى..

هل لأن معدتى متعبة؟.. ككل أبناء الريف الذين أصابتهم الدوسنتاريا ولم يفلح معهم أى علاج، فهذه المعدة هى التى جعلتنى أعيش على طعام أقرب ما يكون إلى الصيام..

هــل لأن رمضان اقترن بصيام آخر اجبارى، عندما دخلت الســجن .. ففى الســجن عزلة وهدوء وانطواء واقتراب من النفس، وعكوف عليها.

إننى لم أجد نفسى ولم أعرف أعماقها إلا عندما ذهبت إلى السجن وإلا فى شهر رمضان. ففى داخل الســجن قرأت كثيرا، وناقشت نفســى كثيرا، وحاسبتها وعاتبتها، ولكن لم أندم على شىء فعلته. ولو عادت بى الحياة مرة أخرى لاخترت كل الذى فعلته، لأننى فى النهاية سوف أصل إلى ما وصلت. فكل شىء بقدر وحساب.. وكل شىء بإرادة الله. ولا راد لإرادة الله وتدبيره. الحمد لله على كل شىء..

إننـــى فى بعـض الأحيان أنظر إلى النـــاس وأضحك، أو أنظر إليهم وأهز رأســى وأقول: لا شىء من الذى يهم الناس يهمنى.. لا هذا الطعام ولا هذه الملابس ولا هذه البيوت ولا هذه الســيارات، لا شــىء من ذلك. فالناس مشــغولون بأشــياء تافهة. إنهم لم يهتدوا إلى الذى اهتديــت إليه. إننى اهتديت إلى حقيقتى .. ففى ظلمات الســجن. وفى الوحدة الباردة. وفى

الصفاء النفسى.. وجدت ذاتي. وعرفت أن ذاتى لها قيمة. وأن الذى لا يشعر بأن له قيمة، هو الإنسان الذى لا يرى للدنيا كلها أية قيمة.

وأنا رجل ذو قيم. وأدعو إلى القيم. وأحرص عليها. وكل شىء سوف يذهب.. إلا القيم. إلا المبادئ. إلا الصدق. وإلا الأصالة وإلا الحب وإلا الخير.. وكنت أقول لنفسى: لقد انشغل الناس عن اكتشاف حقيقة ذواتهم. إنها غلطتهم.

لا أعرف متى بالضبط اهتديت إلى هذه الحقيقة. ولكنى اهتديت.. هل لأن الناس عادة - أكثر الناس - لا يفكرون على هذا النحو فى شهر رمضان، فأحسست أننى أمتاز عنهم بشىء.. هل لأن هذا التفسير مختلف عن المألوف، أو هل لأننى أشعر بأننى مختلف عن الآخرين؟

أعتقد أنه التفسيران معا: فأنا مختلف عن الآخرين فى فهم رمضان، وفى إدراك حقيقة نفسى، هذا هو الذى أعبر عنه بأنه شعور بالامتياز.. (وسوف أعود إلى هذا المعنى كلما وجدت شيئا أو حادثا يقربنى إليه، لعلى أكون أوضح أمام نفسى وأمام الآخرين).

ولن أنسى ما دمت حيا ما حدث لى فى شهر رمضان وفى ليلة القدر من سنة ١٩٤٢.. فأنا ضابط.. ومعزول. ومطلوب منى ألا أبرح المكان الذى استبقونى فيه.. وفجأة جاء من يقول لى: باسم صاحب الجلالة الملك نستغنى عن خدماتك وأنت منذ هذه اللحظة حر تفعل ما تشاء!

ولأول مرة فى حياتى أشعر بغصة من كلمة «الحرية» هذه.. هذه الكلمة الساخرة التى تحرك التاريخ من أوله لآخره. فليس التاريخ إلا جهادا مستمرا من أجل المزيد من الحرية.. أو مزيد من التحرر من الخوف والفقر والمرض والظلم والجهل.. هذه الكلمة الفاتنة التى نذرنا حياتنا من أجلها، قد سمعتها قبيحة بشعة.. إنه يقول لى: أنت حر!

ولم أعرف ما الذى يمكن أن أفعله بحريتى هذه بعد أن جردونى من ملابسى العسكرية.. وأصبحت بلا عمل.. ما هى حدود حريتى. لابد أن تكون هذه الحرية فى أن أمشى فى الشارع أو أجلس على الأرض.. أو أن أرمى نفسى من هذا المكان الذى صار فظيعا فى عينى وفى أذنى وفى خيالى.. هنا استشعرت تلك الأهمية الخاصة التى تنقذنى فى لحظات الضياع فأقول لنفسى: هذا طبيعى. وأنا أتوقع ذلك فى أية لحظة، ولكن على رغم هذا كله فسوف أكون شيئا مختلفا. شيئا أكثر امتيازا عن الناس..

إذن مطلوب منى أن أخرج بكامل حريتى، لأضيع فى الشوارع بكامل حريتى.. لا مال ولا عمل.. وإنما مسئولية ثقيلة جدا. فأنا صاحب أسرة. ولى إخوة كثيرون. ولى أب فقير. ومطلوب منى أن أنفق عليهم من هذه «الحرية» التى منحنى الملك إياها!

وكان ذلك قبل الإفطار بساعة.. وفجأة ظهر أمامى محمد ابراهيم إمام، رجل البوليس السياسى بملابسه المدنية. قلت له: ماذا يا إمام؟ تقدم ناحيتى وفى غاية الأدب والرقة، وهو رجل مهذب عادة وله عادة لطيفة عندما يتكلم، فراح يفرك يديه معا ويقول: تتفضل حضرتك.

فقلت: إلى أين؟

قال: بعض الاجراءات.

وسألته أين؟

قال: فى السجن..

وأحسست أن حريتى التى أعطيتها قد تبددت. كانت وهما. وهذا الوهم تبدد. ولم استمتع بها إلا لحظة واحدة. ثم استردها الملك منى، أو استردها النظام أو الانجليز. وبسرعة قيدونى وأودعونى السجن!

ولم يعرف الذين حبسونى أنه منذ تلك اللحظة قد تغير مجرى حياتى، ففى تلك الليلة، ليلة القدر، انفتحت طاقة القدر دون أن أدرى، واختار لى الله شيئا آخر لا يخطر لهم ولا يخطر لى على بال..

ومرة أخرى يواجهنى محمد إبراهيم إمام، هذا الرجل المهذب، الذى يؤدى عملا كريها.. فقد كنت هربت وتخفيت فى ملابس مدنية. واشتغلت بالأعمال الحرة. وعملت مع زميل فى التجارة. وكان لنا مكتب فى شارع قصر النيل. وفجأة ظهر أمامى محمد إبراهيم إمام. وهو رجل مكلف بإلقاء القبض علىَّ. ولم أكن أخاف من الاعتقال فقد اعتقلت فى ظل الأحكام العرفية. ولا خوف إذا هربت ولا ضرر إذا عدت. ووجدنى محمد إبراهيم إمام أرتدى جلبابا فوق قفطان. وكانت لى لحية صغيرة. وسألته: إلى السجن؟ فقال: لا .. ولكن لا داعى لأن تعمل فى هذا المكتب. اذهب بعيدا عن هذا المكان..

ولم أنس لهذا الرجل أدبه ورقته فى المعاملة. ولم يكن مطالبا أن يفعل ذلك. ولكنه عموما مؤدب. هل لأننى ضابط وهو أيضا. هل لأنه رجل مهذب عموما؟ هل لأنه يعطف على الشباب الوطنى، وإن كان لا يستطيع أن يساعدهم؟..

كل ما أعرفه أن الرجل كان لطيفا، ولم نعرف عنه غلظة أو سفالة فى وقت من الأوقات. ولم أنس له هذه المعاملة الكريمة. وحملتها له..

حتــى كانت الثورة. وفى يــوم ٢٤ يوليو كان محمد إبراهيم إمام من الضباط المطلوب إلقاء القبض عليهم. وطلبت أن أتولى ذلك بنفسي. وكان من المفروض أن أعتقل محمد ابراهيم إمام واثنين من ضباط البوليس السياسى ومن نجوم المجتمع والحياة البوليسية والسياسية فى مصر وهما: توفيق الســعيد والجزار.. وعرفت أن محمد إبراهيم إمام يســكن فى الزمالك. فذهبت إليه ومعى قوة من الشــرطة العسكرية. ووقفت أمام شقته. وفتح لنا الباب. وكان يتوقع ذلك. وهذا طبيعى. وكانت حالته النفسية سيئة جدا. لقد كان منهارا. ولم يدر الرجل ما الذى يقول ولا ما الذى يفعل، وحاولت جاهدا أن أهدئ روعه. وتبسطت معه. ولكن لم أفلح فى تهدئته. وسألته: إن كانت زوجته وأولاده فى البيت؟ فأجاب: فى الإسكندرية.

إذن لقــد أعــد محمد ابراهيم إمام نفســه لكل الاحتمالات. وقلت له: إن رجال الشــرطة العســكرية سوف يقومون بتفتيش البيت ولا داعى لأن تقلق فلن نعاملك كما كانوا يعاملوننا. لا تقلق.

وكان الجو حارا جدا. وسألته: أليست عندك ثلاجة؟

قال: عندى..

قلت: أريد كوباً من الماء البارد..

ودخل الرجل فى غرفة وخرج من غرفة. وهو لا يكف عن الكلام، ولا أدرى ولا هو يدرى، ما الذى يقول. ولكنه فى حالة اضطراب شديد.. بل فى حالة ارتباك أو يمكن أن أقول إنه فى حالة «تلبك» شديد.. لا يعرف أين الباب ولا الشباك ولا الغرفة ولا الثلاجة.

ولم يجد رجال الشــرطة العســكرية شــيئا. وطلبــت إليه أن ينزل معــى. وأكدت له أنه لا خوف عليه. وذهبت به إلى الكلية الحربية. وقبل أن أتركه فى الكلية الحربية سألته إن كان يريد شيئا. قال: أريد مصحفا..

وكذلك طلب توفيق السعيد والجزار..

وعندما زرت محمد إبراهيم إمام بعد ذلك. وجدته جالســا على ســريره يقرأ المصحف. وأكدت له أنه لا خوف عليه. وأن أحدا لن ينتقم منه أو يتشفى فيه.

وبقى الرجل بضعة أيام ثم أفرجنا عنه..

وعرفت فيما بعد مصدر خوفه وفزعه. فقد أدرك أنه فى ظل الثورات عموما، يلقى رجال البوليس أســوأ نهاية. وأن موته مؤكدا لا محالــة. وإننى عندما طلبت إليه أن ينزل معى فى

سيارتى تصور أنى سوف أقتله وألقى به فى الصحراء، ولن يعرف أحد عن هذا المصير شيئا بعد ذاك!

وأعزو هذا السلوك من جانبى: إلى أننى لا أحقد. ولا أشمت. ثم إن الرجل ليس شريراً ولكن وظيفته سيئة السمعة.. إنه يؤدى دوراً. وهو موظف. ولكنه فى نفس الوقت كان أكثر رفقاً ولطفاً من طبيعة عمله..

وأعزو هذا السلوك أيضا إلى أن لدى شعورا غامرا بالامتياز.. هذا الشعور يجعلنى أحس أننى أكبر وأننى أهم. وأنى ممتاز وأنى غير الآخرين.

ربما حرصى على التفكير وعلى التأمل.

فاختلفت بذلك عن غيرى من الشباب فى مثل سنى، هو الذى جعلنى أشعر بأننى مختلف، وأنه من الضرورى أن أؤكد هذا المعنى بصورة مفيدة. ثم إننى رأيت أنه لا يكفى أن يكون الإنسان شاعرا بامتيازه، وانما يجب أن يقترن هذا الشعور بالعمل أو بما يؤكده. فاتجهت إلى القراءة. وقرأت كل ما وقعت عليه عينى. ولكن لم أجد نفسى فى كل الذى قرأت فى سنوات شبابى الأولى.. وعندما تخرجت فى الكلية الحربية اتجهت إلى العمل السياسى وفى يوم من الأيام قرأت أن «دار المعارف» تطلب من القراء أن يطلبوا منها قائمة الكتب الجديدة. وطلبتها ووقعت عينى على كتاب لأحمد أمين اسمه «فيض الخاطر» وهو بالفعل فيض من المعلومات والأفكار الشرقية والغربية. والكتاب يفتح الشهية إلى القراءة. وأسلوبه بسيط ومنطقه سليم. وأحمد أمين كعدد من كبار الكتاب المصريين. يرفعون من قيمة الرأى والفكرة.. أى من قيمة العقل الإنسانى. والإنسان بعلمه وليس بملابسه أو أهله أو حسبه.. وهذه المعانى صادفت هوى فى نفسى. فهذا رأيى أنا أيضا. وكان من المألوف أن يتخرج الواحد فى المدرسة أو فى الكلية ويجد أن لغته الانجليزية ضعيفة. أو لا تسعفه عند الكلام أو عند القراءة. فذهبت إلى المعهد البريطانى بالقرب من شارع عماد الدين والتحقت به، لكى أحصل على درجة عليا. وطلبوا منى عددا من الكتب. وأدهشنى أنهم طلبوا أيضا كتابا لأحمد أمين اسمه «ضحى الإسلام». وعرفت فيما بعد أن هذا الكتاب ليس إلا الجزء الثانى من ثلاثة كتب هى: فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام..

واتجهت إلى دراسة اللغة الألمانية أيضا. كانت هناك سلسلة كتب اسمها «سلسلة هوجو لتعليم اللغات». واخترت كتابا عن تعلم اللغة الألمانية باللغة الانجليزية.. هل هو حبى للغات، أو هل هو حبى للعسكرية الألمانية والألمان، هو الذى دعانى لان أدرس اللغة الألمانية..

وفي ذلك الوقت كانت قد صدرت الترجمة الفرنسية لكتاب توفيق الحكيم «عصفور من الشرق». وعكفت على الترجمة الفرنسية ومقارنتها بالأصل العربى.. لقد وجدت نفسى مشغولا بالقراءة وبدراسة اللغات واتقانها أيضا. فى الوقت الذى كان فيه أمثالى من الشبان يجدون صعوبة فى إتقان اللغة العربية واستخدامها فى الكتابة أو التعبير. فأنا أحب الثقافة وأراها ضرورة حياة. وفى نفس الوقت أرى أنها شرط لتأكيد شعورى بالامتياز عن الآخرين.. وفى السجن اكتشفت كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، وهو من أروع الكتب التى قرأتها عن الرسول عليه الصلاة والسلام، عن حياته وكفاحه وعظمته وعظمة الإسلام ولا أنسى أننى ظللت أحتفظ بصور الجنرالات الألمان، أبطال الحرب العالمية الأولى وخصوصا الجنرالات البروسيين. وقد ارتدوا قبعاتهم العسكرية وحلقوا جانبى الوجه ثم وضع كل واحد منهم «المونوكل» على عينه..

وبعد تخرجى فى الكلية الحربية حلقت شعر رأسى على طريقة الجنرالات البروسيين. وذهبت إلى محل نظاراتى وكشفت على نظرى فوجدته سليما ..وطلبت من الرجل أن يصنع لى المونوكل. واندهش الرجل. وأمام إصرارى أتى بزجاج أبيض.. وجعل حافة الإطار مشرشرة لكى اضغط عليها بعينى.. ووضعت المونوكل على عينى السليمة.. ولكن الذى لا يراه الناس هو أننى مبهور برجال الحرب الألمان.

فالعسكرية الأصيلة هى العسكرية الجرمانية البروسية. ولابد أن يكون هذا السبب نفسه هو الذى بهرنى بهتلر.. والذى جعلنى مفتونا بروميل ثعلب الصحراء وجعلنى اتصل به. وأبعث إليه بمعاهدة كتبتها بخط يدى، وكنت فى الثانية والعشرين من عمرى!

لقد دخلت السجن ليلة القدر ١٩٤٢ وخرجت من السجن فى ليلة القدر سنة ١٩٤٤ أى أننى أمضيت ليلة القدر ثلاث مرات فى ظلام السجون..

إن أناسا كثيرين ذهبوا إلى قمم الجبال أو إلى صوامع الرهبان بعيدين عن الدنيا كلها وهانت عليهم الدنيا كلها. ولم تهن نفوسهم عليهم. وفى هذه الوحدة التامة والصمت الرهيب والظلام المطبق، وفى حالة الصفاء والشفافية الخالصة اكتشفت حقيقة أخرى: أننى أستطيع أن أعود إلى قريتى ميت أبو الكوم. هناك فى أرضى وتحت أشجارها وبين أهلى وأقاربى وبين الفلاحين. هناك لن ينكرنى أحد. ولن يخذلنى أحد. ولن أجوع ولن أعطش.. هناك أستطيع أن أذهب وأن آوى إلى أحضان الريف كله. فالريف كله أحضان حانية لا يسألك أحد تفسيرا

لما أصابك.. وإنما يرون أن الحنان هواء مبذول لكل إنسـان يطلبه أو لا يطلبه .. تماما كظلال الأشـجار دائما هناك.. سـواء جلس فيها أحـد، أم لم يجلس فيها أحـد ..إن الظلال والماء والطعام والرحمة والحب والحنان كلها في متناول كل الناس..

وفى السجن رحت أتخيل البيت من الطين الذى سوف أعيش فيه، ورحت أضع طوب هذا البيت واحدة واحدة وأغرس حوله الأشـجار.. ثم انتقيت لنفسـى شـجرة. وجلست تحتها. وجعلت أنظر إلى بعيد.. وأمامى رأيت شـريط حياتى، صاعدا هابطا، عسكريا مدنيا، متهما قاضيا، قادرا عاجزا، سليما مريضا.

ورأيت كل شـىء يظهر ويختفى، ويعلو ويهبط، يقرب فيكبر، ويبعد فيصغر.. إلا شيئا واحدا فى داخلى: هو أننى مختلف عن الآخرين.. وأن الله قد ادخرنى لشـىء أكبر لا أعرفه. ولا أدرى ما هو. ولكن شعورى هذا يسعدنى والسلام..

وعندما أعود بذاكرتى إلى الوراء، وأنا أفعل ذلك كثيرا، أجد أننى لم أهتد إلى معنى هذه الأحداث إلا فيما بعد..

ولا أدعى أننى كنت أقرأ مسـار الأحـداث فأعرف نتائجها بوضـوح، وإنما تعلمت من سـرعة الأحداث وتشـابكها أن أثبـت. أن أكون هادئـا. أن أصبر.. إننـى تعلمت ذلك فى حياتى العسـكرية، فلابد أن تكون هناك قاعدة ثابتة تحت أقدامنا، لكى نكون قادرين على إصابة الأهداف..

وكذلـك فكريا ومعنويـا. والمثل يقول: لا يغلـب الأيام إلا من صبـر. ومعناه: إلا الذى انتظرت فى ثبات.. ومثل آخر يقول: من صبر ظفر..

ولم أفلح فى أن أكون صبورا إلا بعد مجاهدات طويلة. فليس فى يوم وليلة يبنى الإنسـان شـخصيته.. ويختـار طريقه ويحدد أهدافه. وإنما هى المعاناة العنيفة التى تكشـف جوهر الإنسان وفى ضوء الجراح ونزيفها تظهر للإنسان صلابته وقدرته على تحمل الألم. ومواصلة السير نحو آلام أخرى، من أجل غاية أكبر..

هنـا أعود إلى ذاكرتى التى أحمد الله عليها، فقد حفظنى بها، وحفظها لى، فأتذكر مقالا قرأتـه لأحمد أمين أيضا وتمنيت أن أكتب له معلقا على ذلك وشـغلتنى الدنيا عن ذلك قرأت لـه مقـالا يقارن فيه بين صاحب الرأى وصاحب العقيـدة، أو بين صاحب العلم وبين صاحب الإيمـان وأن هناك فرقا كبيـرا أن يكون لك رأى وأن تكون لك عقيدة، فالذى له رأى هو الذى عنده معلومات، والذى عنده عقيدة هو الذى عنده شىء فى دمه.

وصاحب الرأى قد يكون مفكرا، وكل ما يحتاج إليه هو الأدلة على صحة الرأى، أو على بطلانه.. ولكن صاحب الإيمان راسخ وقاطع. وصاحب الرأى مستعد لأن ينزل عن رأيه هذا إذا ثبت خطؤه.. وهو منذ البداية يعلن أن رأيه يحتمل الصواب والخطأ. أما صاحب العقيدة فهو الإنسان المتحمس الذى لا يهدأ إلا إذا تحققت عقيدته. وأهم ما قاله أحمد أمين. بعد مناقشة ومفاضلة بين الرأى والإيمان. أو بين ما أسميه أنا بعد ذلك بالعلم والإيمان، هو أن الشرق لا ينقصه الرأى. فما أكثر الآراء. وإنما ينقصه الإيمان، ولو ظهر فى الشرق أناس يؤمنون إيماناً قوياً راسخاً بشىء، لتغير وجه الحياة فى الشرق. وتمنيت أن أقول لأحمد أمين إن العلم ضرورى للإيمان. وإن الإيمان شرط للعلم، فالعلم شر بغير إيمان، والإيمان أعمى بغير علم.

والعلم عقل ينير. والإيمان قلب يهدى..

وقد تذرعت بهذين الشرطين ليكون لى ولغيرى دور فى خير مصر والأمة العربية..

لقد علمتنى الحياة فى الريف أن أطيل النظر إلى الأشجار.. إنها نموذج للحياة المتجددة.. فالشجرة الواحدة: ألوف الأوراق ومئات الأغصان وقد تشابكت واتحدت فى جذع واحد.. وإلى هذا الجذع جاءت مئات الجذور، تأتى بعصارة الحياة من الأرض السوداء.. وترفع هذه العصارة إلى ساق الشجرة.. ثم تعود هذه العصارة فتقوم الأوراق بطهيها فى ضوء الشمس وفى الهواء.. إنها ملايين الخلايا الضوئية.. تعمل من أجل هدف واحد: أن تكون هناك حياة يانعة..

وحياة الإنسان كذلك: ألوف الأحداث.. وملايين المعانى، وكلها تتحد فى شخص واحد.. وهذا الشخص نفسه ليس إلا ورقة أو زهرة أو غصنا فى المجتمع.. وإذا حاولت أن أكتشف المعانى فى حياتى، ثم حاولت أن أنظم هذه المعانى فى سياق واحد، فإننى أجد صعوبة كبيرة.. فالأحداث التى كنت أراها هائلة فى طفولتى وشبابى، اكتشف بعد ذلك أنها كانت صغيرة.. أو كانت تافهة.. والأحداث التى كنت أراها عابرة عادت فتكررت واكتسبت معانى جديدة.. فلم تعد فى حياتى، أو على شجرة حياتى، ورقة تكبر وتزداد اخضرارا ثم تذبل.. وإنما وجدت بعد ذلك أنها أصبحت زهرة وأصبحت ثمرة، وفى داخل الثمرة بذور.. وما البذور إلا وعود «موجزة» بحياة جديدة..

والحرب العالمية الثانية كانت نورا ونارا فى حياتنا نحن الشبان.. لقد أشعلت فينا الحماسة والإعجاب، وأضاءت لنا الطريق إلى الخلاص من الاحتلال البريطانى، ومن أعوان الاحتلال البريطانى.. وكان اكتساح الألمان لأوروبا وتهديدهم لروسيا وزحفهم على مصر، كل

ذلك صبغ بالألوان حياتنا، وجسد لنا أحلامنا.. ولا أعرف تلك المقدمات الرائعة المروعة التى دفعت شابا صغيرا فى الثانية والعشرين من عمره أن يكتب معاهدة لروميل يطلب إليه فيها أن يصدق عليها من ألمانيا، ونحن على استعداد لأن نفتح له الطريق إلى مصر لنتخلص معا من الإنجليز.. ولكن هذا ما حدث..

إن إعجابى بالعسكرية الألمانية، كان شيئا لا يوصف وإذا وصفته، فإن اللغة العربية لا تسعفنى فى أن أجد له كل ما يستحقه من عظيم الإعجاب وعميق الحب.. لقد بهرنى هتلر، ومن قبله بهرتنى العسكرية الألمانية.. فلما زحف روميل على الصحراء الغربية مكتسحا الانجليز، زحف فى نفس الوقت على قلبى واحتله، وعلى خيالى فركب له أجنحة.. وأحسست أننى أطير فوق مصر فأجد حكومة الوفد قد فرضها الإنجليز على الملك وعلى الشعب وعلى الجيش.. منتهى العار..

وعار آخر أن يدخل روميل إلى مصر فلا يجد فيها حركة مقاومة وطنية.. وأحسست أننا نحن الشبان: نحن المقاومة الوطنية. فلا نحن مع الإنجليز ولا مع الأحزاب ولا مع الملك وإنما نحن مع مصر، مع الجيش. ونريد الخلاص من هذا العار، بطرد الانجليز، والخلاص من عار آخر ألعن وأفدح هو أن مصر ميتة لا شباب فيها ولا مقاومة ضد الاستعمار البريطانى..

ومن كل أوراق شجرة الحياة السياسية فى مصر أختار غصنين اثنين، أو أختار حادثين يتصلان معا، ويؤديان إلى نفس الهدف الذى نحلم به فى ذلك الوقت..

كان ذلك يوم مولد النبى سنة ١٩٤٠، وكنت ضابطا نوبتجيا. وكان من المفروض أن أبيت فى القشلاق مع الجنود أما الضابط العظيم فيبيت عادة فى بيته، وإذا حدث ما يستوجب حضوره استدعيته.. فى تلك الليلة جاءنى جاويش يقول: إن رجلا اسمه الشيخ حسن البنا يريد أن يلتقى بالجنود وأن يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمناسبة مولده الكريم. طبعا لا مانع من أن يجىء هذا الرجل حسن البنا. إنه رجل دين. وهو فصيح ويحسن التعبير. وعنده سلاسة فى الكلام. وقدرة على الإقناع. وربما كانت هذه كبرى مزاياه..

ولابد أن الشيخ حسن البنا قد سمع بى. فقد كان من عادتى أن ألتقى بالجنود وأتحدث إليهم بعد صلاة المغرب ويكون حديثى عن الحياة العامة وضد الاحتلال البريطانى. وهذا طبيعى.

وكان الشيخ حسن البنا فى ذلك الوقت قد تسلل إلى الجيش. وانتقل من الجنود إلى صف الضباط. ولم يتصل بالضباط بعد. وجاء الرجل وتحدث وكان مقنعا حقا.

وانصرف الرجل بعد أن دعانى إلى اللقاء به فى المركز العام للإخوان المسلمين فى الحلمية الجديدة بالقاهرة. وقبلت الدعوة. ولم تمض سوى ساعتين حتى أحسست أن شيئا خطيرا قد حدث. فقد جاء من يقول لى: إن الضابط العظيم قد حضر. وأسرعت للقائه. وسألنى. فقلت له: كل شىء تمام يا أفندم.

ولكن الضابط العظيم ثار قائلا: كيف تسمح لرجل مثل الشيخ حسن البنا بالحديث إلى الجنود. ماذا يحدث بالضبط.

وأخبرته أن الرجل عرض أن يتحدث إلى الجنود فى هذه المناسبة الدينية. فقلت له: لامانع تفضل. وتكلم الشيخ حسن البنا وكنا سعداء جميعا. وانتهى كل شىء فى هدوء.

وكان الشيخ حسن البنا، مشبوها ومغضوبا عليه. إذن لقد ارتكبت بدعوته غلطة فظيعة.

وذهبت للقاء الرجل. ورأيت الناس «يقدسون» الشيخ حسن البنا.. ولم يعجبنى ذلك. فهم ينظرون إليه نظرة غير دينية، يقبلون يديه. ويقفون أمامه وقد علاهم الخوف والفزع. ودعانى الرجل إلى زيارته فى بيته وكان بيته على مسافة مائة متر من المركز العام.. ولاحظت أن عددا من رجاله يدخلون. وقد عرضوا عليه بعض المسدسات. ويسألونه: إن كانوا يشترون هذا النوع أو ذاك..

وكان يطلب إليهم أن يتصلوا بفلان أو علان من الناس للنظر فى شراء مثل هذه الأسلحة.

ولم يصعب على أن أستنتج أن الرجل يريد أن يفهمنى أو يوهمنى بأن لديه سلاحاً وتدريبا على حمل السلاح والاستعداد للقتال. ولكن بانحناءات الناس وتقبيل يديه، أحسست أن هذه أسلحة فاسدة يستخدمها الرجال أو يستخدمها أعوانه لإقناع الناس به..

ودار بيننا كلام طويل، وراح الرجل يلف ويدور. وصارحته: نحن نرفض أن نكون تحت لوائك. إننى ضابط. ولنا تنظيم وسوف نقوم بثورة.

وأصبح واضحا أنه من الممكن أن يتوازى نشاطانا، ولكن ليس من الممكن أن تتطابق خططنا وخططه. وإن كان أحد زملائنا من الضباط الأحرار قد استماله الشيخ البنا وأقنعه، وهو عبد المنعم عبد الرءوف. ولم يعجبنا ذلك. واعترضنا عليه، وانفصلنا عنه وفصلناه وحوكم وجرد من جنسيته المصرية ولكن أعيد إلى حياته العادية مع معاش كريم بعد ذلك..

وعن طريق الشيخ البنا عرفت عزيز على المصرى، اسمه عزيز على ولكن الأتراك أضافوا كلمة المصرى تمييزا له. وقد رويت ذلك فى مواضع مختلفة من هذه الأوراق..

ولكن يهمني جداً وأنا أحاول أن أجمع النسيج الملتهب لحياتي أيام الزحف الألماني على مصر وعلى روسيا وعلى القوقاز، والاستيلاء على سوريا ولبنان بالتعاون مع حكومة الماريشال بيتان الفرنسية، ثورة رشيد عالي في العراق، أن أسرد كيف استدعاني عزيز على المصرى إلى جروبي. وكان من عادته أن يذهب إليه كالباشوات. وأن يقود بنفسه سيارته الاسكودا، وكنا ننظر إلى هذه السيارة على أنها أروع وأفخم من المرسيدس. دعاني وقال لى: لقد اتصل بى الألمان. إنهم يريدونني أن أذهب إليهم. فالموقف مكهرب على الجبهة الشرقية من روسيا إلى مصر إلى العراق.. وهم يعلمون أنني خبير في هذه الشئون الشرقية والعربية.. وقد تمت اتصالات عن طريق سفارتهم في تركيا حيث يعمل سفير عتيد هو فون بابن الذى أصبح وزيرا للخارجية بعد ذلك. وهو لا يقل خطورة عن تاليران وزير خارجية نابليون الذى انقلب عليه بعد ذلك.

ثم مضى عزيز المصرى يقول لى: إن الألمان يريدون أن يعرفوا إن كان فى الإمكان أن يبعثوا لى بغواصة تدخل البحيرات عند بورسعيد.. أو يبعثوا لى بطائرة تهبط بالقرب من القاهرة. والمطلوب هو أن نعرف كيف يتحقق ذلك.

وعرفت أن المطلوب منى هو أن نستكشف شواطئ شمال الدلتا عند بورسعيد.

واتصلت بأحمد حافظ مظهر، الممثل المشهور الآن، وكان من الضباط الأحرار فى سلاح الفرسان. وقلت له: يا مظهر .

قال: نعم

قلت هناك مهمة خطيرة يجب أن نقوم بها. ولكن يجب أن نذهب معا إلى عزيز على المصرى فى بيته فى عين شمس.

وذهبنا والتقينا بعزيز على المصرى. وعرف أحمد مظهر المهمة المطلوبة. ووافق. وأحمد مظهر ابن ذوات، وليس مثلنا. وهو إنسان مهذب ولطيف. وركب أحمد مظهر سيارة. وانتقل وعاين. وعاد عند الفجر ليقول لى: إن الشاطئ موحل. وإنه لا يصلح للغواصات.

إذن أمامنا الاحتمال الآخر: وهو أن يبحث عن أرض يمكن للطائرات الألمانية أن تهبط فيها. وعدنا إلى الخرائط نبحث عن المطارات المستخدمة والمطارات المهجورة ووجدنا على الخريطة مطارا مهجورا قرب الخطاطبة. وقررنا نحن الثلاثة، عزيز على المصرى وعبد المنعم عبد الرءوف وأنا، أن نذهب لمعاينة المكان، ولم يكن من السهل أن نتجه إلى الخطاطبة مارين

بالطريق الصحراوى. فعلى الطريق نقط مراقبة انجليزية. ولذلك اتجهنا إلى القناطر ومنها إلى قرب الرست هاوس، حيث ستقام الآن مدينة السادات. واتجهنا إلى مطار الخطاطبة ووجدناه صالحا لهبوط الطائرات الألمانية. ولم تكن الطائرات تحتاج إلى أكثر من ثلاثين أو أربعين مترا لكى تهبط فى هدوء على الأرض. ولم يكن هناك أدنى خوف من هبوطها، فلم يكن الرادار قد انتشر بعد. ولذلك يستحيل ضبطها قبل أو عند الهبوط أو بعد ذلك..

وعدنـا بعـد أن تأكدنا من المكان تماما. وفجأة وجدنا أنفسـنا محاطـين تماما بعدد هائل من مخازن الذخيرة البريطانية. كارثة أن نذهب بأرجلنا إلى الإنجليز. فأنا مشـبوه. وعزيز المصرى أيضا.

وهنـا وجدت قوة أعصاب عزيز علـى المصرى وقدرته على القيادة السـريعة، وفى نفس الوقت لقد أسـعفتنا هذه السـيارة المتينة التى استطاعت أن تخترق الرمال وأن تمضى بسرعة هائلـة، وكان من الممكن أن نظـل تائهين، لا يوما واحدا وإنما عشـرات الأيام، إذا ما فقدنا اتجاهنا فى الصحراء. ولكن الله قد أنقذنا من هلاك محقق لنا جميعا!

إذن لا الغواصة ممكنة، ولا الهبوط على أرض الخطاطبة ممكن. وأصبنا بخيبة الأمل.

واتصـل بى عزيز على المصرى ليقـول لى: إن المندوب الألمانى الذى يصله بروميل قد جاءه وأعطـاه خطابـا مغلقا ثم اختفى ولما فتحنا الخطاب وجدنا أن الألمـان قد اختاروا مكانا أفضل لهبـوط طائرتهم. وهو مكان لم يخطر لنا على خيال. فقد حدد الألمان جبلا اسمه جبل رزه.. هذا الجبل قريب من هضبة الأهرام فى طريق الفيوم.

وذهبت أعاين المكان. إنه مكان رائع. شىء غريب أن الألمان يعرفون مصر أكثر مما نعرفها. وقد استعد الألمان لذلك استعداداً كاملا. والذى يراجع الصحف المصرية فى ذلك الوقت يجد أن سلاح الطيران البريطانى قد أنقذ خمس بعثات ألمانية من الضياع فى الصحراء الغربية..

أما هذه البعثات فلم تكن سياحية ولا أثرية، وإنما هم رجال المخابرات يجمعون المعلومات عن دروب وأغوار ومهابط الطائرات فى الصحراء الغربية قبل الغزو الألمانى وأثناءه وبعده.

ثـم تحدد يوم هبوط الطائـرة الألمانية على جبل رزه. وفى نفـس الوقت تقرر إبعادى إلى الصحراء الغربية..

وذهبت بسيارة اسـتأجرتها لأعاين المكان وافتعلت حادثاً ونقلت إلى المستشفى العسكرى حتى لا أسافر. وكان أبى يعمل فى المستشفى العسكرى..

وبعـد أن طلبت مـن عبد المنعم عبد الرءوف أن يوصل عزيز المصرى إلى الطائرة وأن يحافظ على جهاز الإرسـال الذى سـيبعث به الألمان لكى نتصل بهم، فوجئـت بأن الألمان قد أجلوا إرسال طائرتهم أسبوعا. وأحسست بالراحة التامة لهذا التأجيل..

وكان لابد أن نلجأ إلى طريقة أخرى.. فإذا لم يأت الألمان إلينا بحرا أو جوا، فليذهب عزيز المصرى إليهم.

واسـتقل عزيز المصرى طائرة يقودها حسـين ذو الفقار صبرى وعبـد المنعم عبد الرءوف وحسـين ذو الفقـار صبرى طيار بارع. وصـل عزيز المصرى ومعه شـنطة مليئة بالبرانيط من مختلف الأشكال والألوان والأحجام، إنه لم ينس أناقته لحظة واحدة. واحترقت الطائرة فى طريقها من مطار ألماظة إلى بيروت. وسقطت عند بنها. واتجه عزيز المصرى إلى قسم الشرطة، على أمل أن يجد واحدا من تلامذته من رجال الشرطة.. فقد كان مديرا محبوبا لكلية الشرطة وعرفه مأمور القسم وأعطاه سيارة لنقلهم جميعا إلى القاهرة حيث اختفوا هناك.

وكان يتصـل بعزيز المصـرى رجل ألمانى عاش فى مصر ويتكلـم العربية، وابن بلد اسمه حسـين جعفر ومعه جاسوس آخر. وقد تسللا إلى مصر عن طريق الصحراء الغربية إلى أسيوط وبالقطار إلى القاهرة. وكان روميل بعد أن سحق الجيش الثامن واستولى على عرباته وملابسه استطاع أن يدفع إلى مصر برجالة فى ملابس وسيارات بريطانية..

واستأجروا عوامة الراقصة حكمت فهمى..

وبدأ الاتصال بعزيز المصرى إلى آخر الأحداث المثيرة المتفجرة المعروفة..

وفـى كل حوادث الاتصال بالألمان أو بعزيز المصرى، أو كل نشـاط معاد للإنجليز لابد أن يأتوا بى من أقصى الصحراء الغربية إلى القاهرة..

ولذلك كانت الأحداث فى ذلك الوقت خيوطا من المطاط تشـدنى وأشـدها، وتسـحبنى وأقاومهـا، وفى النهاية تزيدنى تمسـكا وصلابة. وأجدنى مشـتبكا فى سلاسـل أخرى من الأحداث. وكلها فى النهاية: كيف يمكن الخلاص من الإنجليز ومن الفساد فى مصر..

أمـا السلسـلة الأخرى مـن الأحداث فهـى تبدأ بحرائق مثـيرة فى القاهـرة.. فالقيادة البريطانية التى تسكن عمارة سيف الدين تحرق الأوراق والمستندات، منسحبة إلى الخرطوم. فقد كان زحف روميل وسـحق القوات البريطانية يؤكد أن الإنجليز سـوف ينسحبون أمامه إلى السودان.

واتصل بنا اثنان من الألمان فى نفس الوقت الذى تتحرك فيه المظاهرات فى القاهرة معادية للإنجليز وتهتف: تقدم يا روميل!

وكل شىء فى مصر فى ذلك الوقت يبعث على الخجل ويعمق الشعور بالعار. ولابد من عمل شىء ضد الإنجليز ومن أجل مصر. وتم الاتصال بروميل.

ثم جاءت مهمة الطيار سعودى أو حادث الطيار سعودى. ذلك الحادث المؤسف، الذى أحرق آمالنا فى ذلك الوقت..

وكان الطيار سعودى يعمل معنا. وطلبت إليه أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة.

قلت: يا سعودى.

قال لى: نعم.

قلت: هذه الشنطة تحملها إلى روميل..

ثم حدثته عن مهمته كاملة. فقد كان المطلوب هو أن نساعد الألمان على دخول مصر. ولذلك فقد رسمنا لهم كل المواقع من الجو. وكل المطارات ومخازن الذخيرة. هذه الصور التقطت وتم تحميضها وطبعها، تحت أعين الخبراء الإنجليز دون أن يعرفوا الهدف منها.

أما الطائرة التى ركبها سعودى هذا فكانت من طائرات سلاح الطيران الملكى المصرى من أربعة محركات ومصنوعة من قماش اسمه دوب. وكان لها مدفع أمامى يطلقه الطيار من وراء المحركات. وكانت الاشتباكات الجوية نوعا من اشتباك المظلات. أى لابد للطيار أن يستدير لضرب خصمه من الخلف.

وكان من الضرورى للطيار فى ذلك الوقت، وحتى الآن، أن يظل فى طائرته التى امتلأت بالوقود. فى انتظار أى أمر بالتحرك. ولذلك فالطيار يجلس دائما فى حالة استعداد. وفى ثانية واحدة يكون فى الجو.. وهذا ما يحدث لطيارى الميج والميراج والفانتوم. إنها نفس القواعد. مهما تغيرت الطائرات.

أما هذه الطائرة فقد كانت للطيار حسن إبراهيم، أحد الضباط الأحرار. وكان حسن إبراهيم نوبتجيا. وقد استقلها سعودى وطار بها. وحوكم حسن إبراهيم بجريمة الإهمال. وأدى ذلك إلى تأخير أقدميته وترقيته. ولكنه لم يعلن عن أى شىء.. أما الذى حدث بعد ذلك فهو أن سعودى ارتفع بطائرته. وكان من المفروض أن يهبط فى أحد مطارات الألمان فى العلمين. ولكن الألمان أصابوه. وكان المفروض أن سعودى يخطر الألمان بأنه طيار صديق.

والطريقــة إلى تأكيد هذا المعنى هى أن يحرك أو يهز جناحى الطائرة. فهذه هى الإشــارة المعروفة. ويبدو أنه فعل، ولكنهم لم يروه. أو أنه لم يستطع أن يفعل ذلك. لا نعرف.

ولكن الطائرة أصيبت فاحترقت هى وسـعودى والحقيبة التى كانت تضم الخرائط والصور وجدولا بالترددات اللاسلكية إذا أراد الألمان الاتصال بنا. وقد خفنا أن تقع الحقيبة فى أيدى الإنجليز إذا لم ينجح سعودى فوضعنا فيها كرة من الديناميت.

واحترق كل شىء وفشلت هذه العملية تماما.

وأهم من ذلك مما احترقت به الطائرة: تلك المعاهدة التى كتبتها لروميل أطلب إليه أن يصدق على هذه المعاهدة. ولكى أؤكد له حسن نيتنا نحن الشباب المصرى ونحن الضباط فقد أرسلت له هذه الصور والخرائط كعربون على حسـن نيتنا. ثـم وعدناه بأن نمنع الانجليز من الخروج من مصر لملاقاة الجيش الألمانى ووعدناه أيضا بتجنيد ثلاث أو خمس فرق تحارب الإنجليز..

وقد ذهبت إلى «سـوق القزاز» أى «سـوق الزجاج» - ولم أكن أعرفها مطلقا وإنما هى سوق لبيـع الزجاجات الفارغة بالجملة أى بالألـوف. وأتيت بألوف الزجاجات وملأتها بالبنزين وحولناها إلى قنابل مولوتوف لننسـف البريطانيين وذخائرهم، ونعـوق تقدمهم أو تحركهم فى القاهرة وخارجها تمكينا لروميل وقواته.

وقد قلت لروميل فى هذه المعاهدة إننا مستعدون أن نفعل أى شىء من أجل إخراج الإنجليز واستقلالنا وألا نكون من نصيب الإيطاليين.

فقد كان موسـولينى فى ذلك الوقت يقول: إنه سـوف يدخل مصر من ليبيا التى احتلها، على حصان أبيض.. تماما كما دخل مارك أنطونيو.. وكان موسولينى يقول فى ذلك الوقت: إن عندى ثمانية ملايين حربة موجهة إلى كل اتجاه..

وكان يقول أيضا: إن البحر الأبيض ليس طريقا لملاحة إيطاليا وإنما هو حياة إيطاليا..

أى إنه يريد أن يستولى على كل البلاد التى تطل على البحر الأبيض أو البحيرة الرومانية كما يقول. وهذا هو السلام الرومانى، الذى ينادى به موسولينى..

وعرفت فيما بعد، وفى ذلكِ الوقت أن موسـولينى كان أصغر بكثير جداً من هذه الضوضاء التـى يحدثهـا فى كل مكان وفى كل مناسـبة. وما أصاب الإيطاليين فــى الصحراء الغربية. جعلنا نؤمن بأن القوة العسـكرية الجبارة فى ذلك الوقـت هى: ألمانيا.. وهى: روميل ثعلب الصحراء!

ومن المألوف أن يجيء البوليس ويمسكنى ويسجنونى وينقلونى من سجن إلى سجن.. ولم يكن ذلك يدهشنى. وإنما اقتنعت بأن هذه هى الأحجار أو الأشواك فى الطريق الذى رسمه الله لى..

فقد اعتادت أذنى على هذه الوجوه التى تهددنى واعتادت قدماى على الحجارة والأسلاك واعتادت عيناى على الجدران الكالحة وظلمات الغرف الضيقة والباردة.

ثم كنت فى مواجهة هذا كله آوى إلى أعماق.. وكأننى آوى إلى ركن ركين، وإلى مكان أمين. وأجد فى نفسى من الهدوء والأمان وراحة الضمير ما يعوضنى عن هذا العذاب فى خارجى..

هذا الهدوء العميق فى داخلى هو الذى اسميته قبل ذلك بالشعور والامتياز.. وبأننى مختلف عن الآخرين.. وأن هذه هى إرادة الله. فالحمد لله.. الذى هدانى، وما كنت لأهتدى لولا أن هدانى الله...

□□□

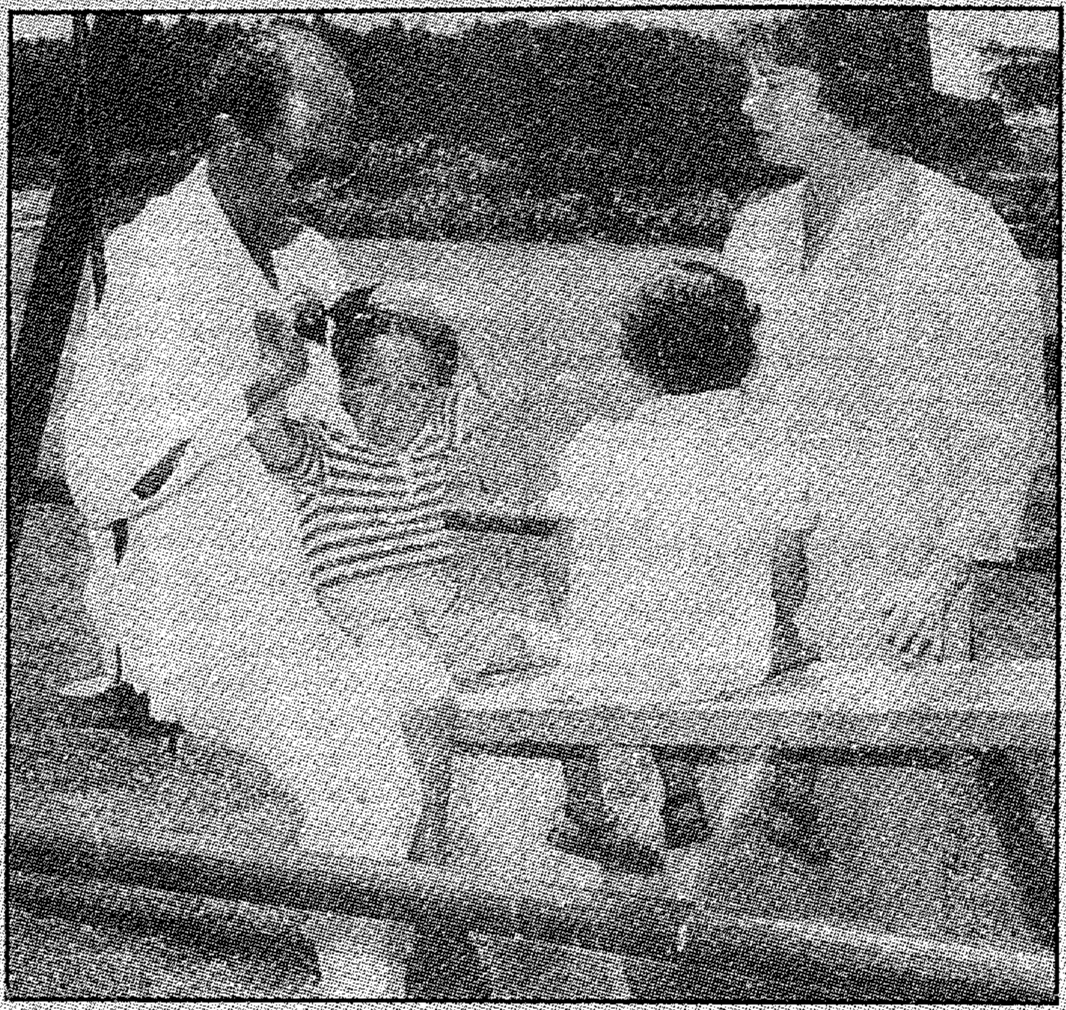

١ - السادات والسيدة قرينته مع حفيديهما .

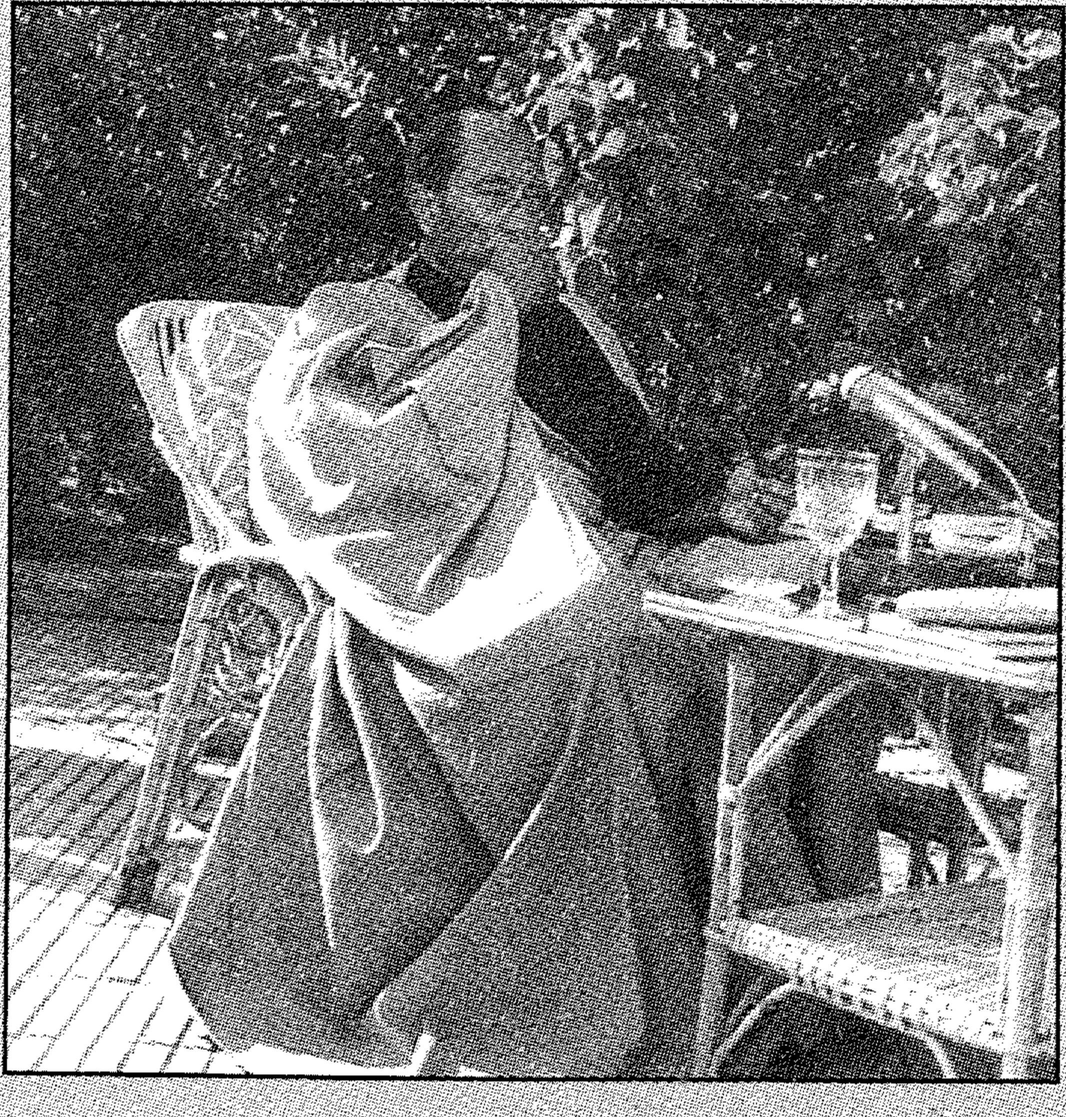

٢ - السادات فى استراحة ميت أبو الكوم .

٣ - الرئيس السادات يداعب أحد الأطفال أثناء زيارته لبلدته ميت أبو الكوم .

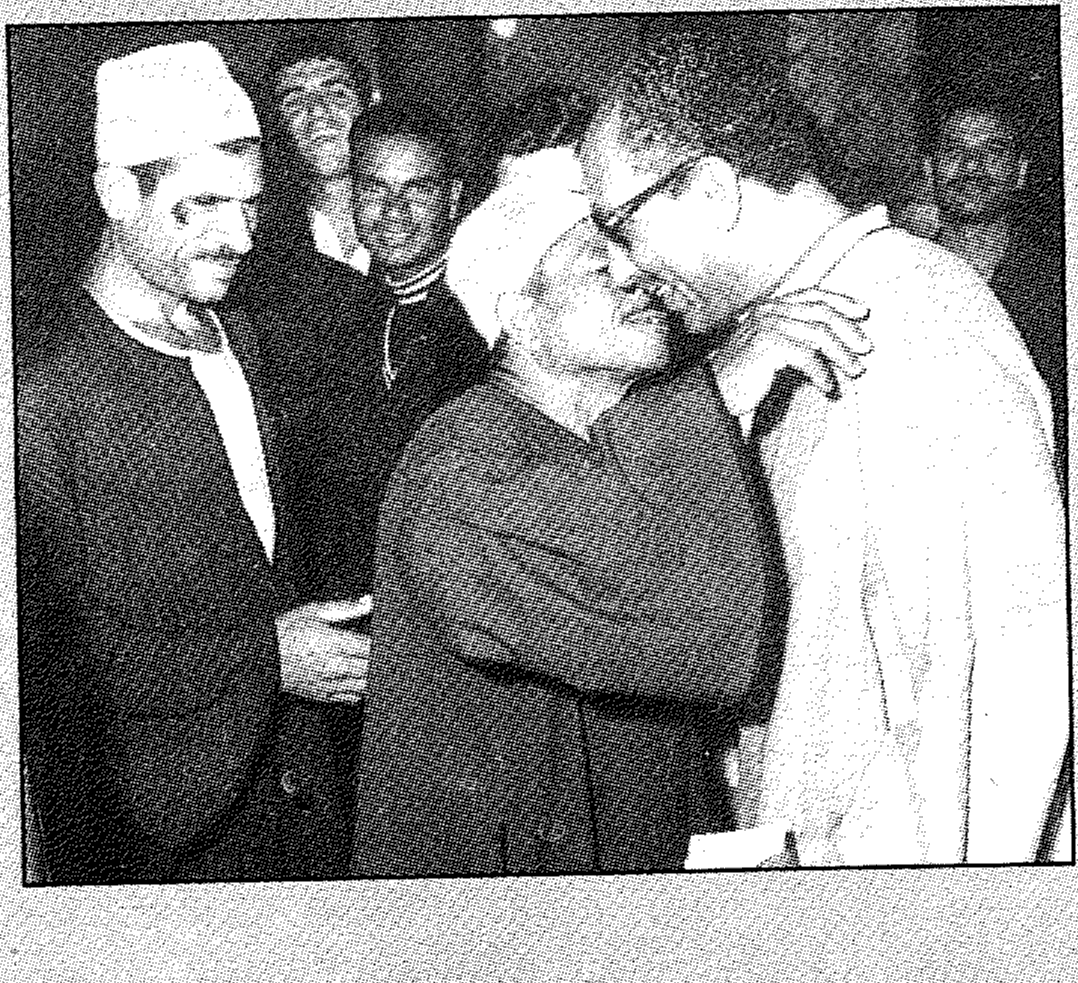

٤ - .. ويعانق أهل قريته .

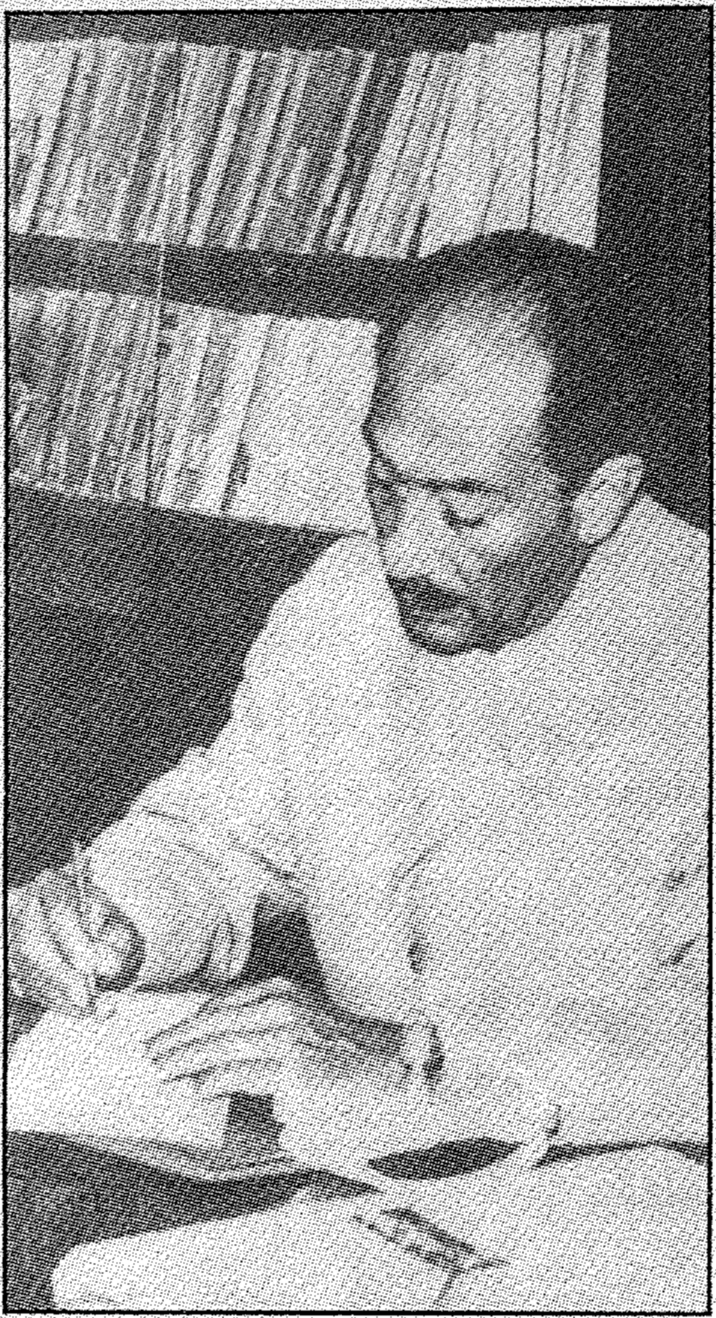

٥ - الرئيس السادات وقد استغرق فى كتابة أوراقه .

٦ - حسن إبراهيم أحد الضباط الأحرار .

الفهرس

الموضــــــوع	الصفحـــة
- كلمة أولى	٣
- الذئب الرمادى	١٣
- الشيوعية والحياد غير الإيجابى	٢٩
- غليان الجليد	٤٣
- ألاعيب سوفيتية	٥٩
- الأسباب الحقيقية لهزيمة ٦٧	٧٧
- ناصر فوق صفيح ساخن	٩٥
- قرارات حاسمة	١١٥
- الطابور الخامس والصراع على السلطة	١٣٥
- سنة الحسم	١٥٥
- لعبة جديدة	١٧١
- لقاء تاريخى	١٨٥
- مفاجأة مذهلة	٢٠١
- هدوء ما قبل العاصفة	٢١٣
- وبدأت الحرب	٢٢٧
- وقف إطلاق النار	٢٤٥
- كيسنجر وزير فوق العادة	٢٥٩
- الجليد يذوب بين مصر وأمريكا	٢٧٣
- مفاهيم خاطئة	٢٨٧
- موقف غريب	٣٠١
- التصنيف اللعين	٣١٥
- كشف حساب	٣٤٣
- محطات مهمة فى حياة السادات	٣٧٥

الموضـــــوع	الصفحة

- خفايا اليوم الكبير فى ثورة مايو ٤٠٧
- مصر من ملكية إلى جمهورية ٤٤١
- لحظـات لا تنسى ٤٦٧
- تأصيل بلا تفصيل ٤٨٧

طبع بمطابع دار المعارف

لا أعرف كم جلست معه لكى يحكى هذه المذكرات، فى إحدى المرات استغرقت الجلسة ١٨ ساعة فالرئيس السادات عندما يشرع فى قضية مهمة لا يلتفت إلى شىء آخر.. وكنت أعيد صياغة ما أملاه الرئيس وأتحقق من التواريخ. ولم يلجأ الرئيس السادات إلى ورقة أو كتاب ينقل منه ذكرياته أو خواطره أو يراجع ما فيها من تواريخ وإنما قد ذاكرها وفكر فيها كثيرًا وأعاد التفكير حتى إذا استقرت فى ذهنه وأتيحت له فرصة أن يرويها لم يجد صعوبة فى ذلك. فأوراق السادات لم تكن تسجيلًا لحياته وعرضًا تاريخيًا لها وإنما دعوة للأجيال القادمة أن تقلب وتقرأ صفحات من تاريخ مصر والعالم من حولنا. فنجد فى «أوراقه» رصدًا دقيقًا لأحداث ثورة يوليو سنة بسنة وكشفًا لأسرار ثورة مايو وتوثيقًا تاريخيًا لمعركة أكتوبر باليوم والساعة والدقيقة.

أنيس

Bibliotheca Alexandrina
0939780

دار المعارف
٠٣٤٤٠٨/٠١